الفصل الثالث

طبقات المجتمع ودورها في الإدارة والحكم

obeikandl.com

obeikandl.com

المسلمون من العرب

من المبادئ الأصيلة في الدعوة الإسلامية عدم المفاضلة بين الناس على أساس الأنساب، والمفاضلة إنما تكون بالتقوى، وعليه الآية الكريمة «يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم[1]»، وأكد الرسول هذا المعنى في خطبة الوداع: «تعلمن أن كل مسلم أخو المسلم وأن المسلمين إخوة[2]». ولكن الرسول أدرك كذلك بثاقب بصره أن حرص زعماء القبائل على مراتب الشرف التي يتبوءونها في قومهم، والمنافع المادية التي تحققها لهم مناصب الرئاسة هي عقبة كؤود تعترض سبيل انتشار الدعوة الإسلامية واعتناق القبائل العربية لها، ورأى أن تذليل هذه العقبة لا يأتي إلا عن طريق اصطناع رؤساء القبائل وتألفهم، فكان لذلك يؤثر من كان منهم بالعطاء والهبات ويقسم لهم نصيباً أوفى من الغنائم. وكانت خطته هذه مدعاة لاستياء أنصاره في بعض الأحيان[3]. جاء في الطبري عن أبي سعيد الخُدَري أنه لما أعطى رسول الله ما أعطى للمؤلفة قلوبهم — وكانوا أشرافاً من أشراف الناس يتألفهم ويتألف به قلوبهم — ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة[4]، فكان جواب الرسول لهم بأنه إنّما

(١) سورة الحجرات، آية: ٢

(٢) الطبري، ج ٣ ص ١٥١.

(٣) المصدر السابق، ج ٣ ص ٩٠، البخاري، الجامع الصحيح، ليدن ج ٢، ص ٢٨٧.

(٤) الطبري، ج ٣ ص ٩٣.

تألف بها قوما ليسلموا ووكلهم إلى إسلامهم، وبأنه لو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلك رسول الله (صلعم) شعب الأنصار[٥].

وبالرغم من أن الإسلام جعل مدار التفاضل بين الرجال على التقوى، والإيمان لا على الاحساب والأنساب فانه لم يلغ مراتب الشرف القبلية إلغاء تاماً، وإنما جعلها منوطة بحسن الإيمان وقوة العقيدة، فحين سأله قوم عن اكرم العرب كان جوابه: «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا[٦]». وقد جرى خلفاء الرسول على الموقف نفسه الذي وقفه الرسول من الروح الجاهلية والعصبيات القبلية، فاتخذ أبو بكر موقفاً صارماً لا هوادة فيه من حركة الردة، وأمر بقمعها بكل وسيلة لأنه وجد فيها خطراً على كيان الدولة الإسلامية الناشئة، كما رأى فيها ظاهرة قبلية خطيرة، تهدد بعودة العرب سيرتها الأولى في الجاهلية من التنابذ والتفرقة؛ وكان عمر بن الخطاب أشد عنفاً من سلفه في قمع الدعوة العصبية والنزعات القبلية وفي تجاهل امتيازات الشرف الموروثة عن الجاهلية، وكان يأذن في مجلسه للموالي الذين عرفوا بسبقهم إلى الإسلام كصهيب وبلال قبل أن يأذن للاشراف الذين لم يكن لهم سابقة في الإسلام أمثال عيينه بن حصين الفزاري والأقرع بن حابس التميمي[٧]. وحين فرض عمر العطاء للمسلمين وغضب بعض أشراف قريش أن يكون نصيبهم دون نصيب غيرهم، أجابهم أنه أعطى على السابقة في الإسلام لا على الأحساب[٨]. ووقف عمر من الأنساب موقف الرسول قبله، إذ حض القوم على رعايتها لا ليتعصبوا لها، وإنما ليصلوا أرحامهم، ويعرفوا روابط القربى التي تصل بينهم، ومن المحتم في مجتمع كانت تسوده المفاهيم والتقاليد القبلية أن يقوم الصراع بين الاتجاهات الإسلامية وبين التقاليد القبلية سواء أكان ذلك واضحاً مكشوفاً أم خفياً مستوراً، ومن المتعذر فهم تاريخ صدر الإسلام ان لم يلاحظ هذا التصادم والاحتكاك.

---

(٥) الطبري، ج ٣ ص ٩٤.

(٦) البخاري، الجامع الصحيح، ج ٢ ــ كتاب المناقب، ص ٣٨١.

(٧) الجاحظ، العثمانية، القاهرة، ١٩٥٥ م ص ٢١٧.

(٨) الطبري ج ٣ ص ٦١٣.

ونحن إذا أتينا إلى العرب المسلمين في الشام نجد أن عاملين اثنين كان لهما دور هام في تحديد مكانتهم الاجتماعية، وهما عامل العطاء منذ فرضه الرسول ونظمه عمر وعامل صحبة الرسول ونصرته في دعوته، وما كان من أثره في نشأة طبقة الصحابة التي انشطرت بدورها شطراً اتجه إلى المعرفة وشطراً اتجه نحو السياسة والحكم، فقد عاش صحابة الرسول في ذاكرة الجماعة الإسلامية ووجدانها على أنها امتداد لحياته الشريفة، وتمثيل لها وتعبير عن دعوته وتجسيم لهذه الدعوة، وعاشت فكرة العطاء رمزاً للمكانة الاجتماعية وتعبيراً عن السابقة إلى النصرة[٩]، ثم تعبيراً عن الشجاعة والبلاء في تلك الحروب الخطيرة التي ساهموا فيها، فقد كان عطاء المقاتلة الذين اشتركوا في معركة اليرموك الفين[١٠]، وفرض عمر لأهل البلاء البارع منهم في ألفين وخمسمائة ثم تدرّج العطاء ما بين ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة[١١].

وكان الحد الأعلى للعطاء ويدعى شرف العطاء محدداً بألفين وخمسمائة في العهد الراشدي[١٢]، ثم انقصه معاوية وجعله ألفي درهم[١٣]، وكان الأشراف في الشام الذين عطاؤهم ألفين يأخذون بالإضافة إلى عطائهم قطيفة[١٤]، ولا نجد إشارة لذلك في العراق ومصر، وربما تأثر معاوية بما كان يجري في الدولة البيزنطية حيث كان الموظفون الكبار يأخذون بالإضافة إلى أرزاقهم عطاء نقدياً وملابس وكان العطاء والملابس توزع مرة في السنة[١٥].

وكان شرف العطاء يمنح لمن يقوم ببعض الأعمال الإدارية أو القيادية[١٦]، أو من يبدي بسالة في الحروب، وقد استمرت هذه القواعد في العصر الأموي، إلا أن عامل

(٩) الطبري، ج ٣ ص ٦١٤، البلاذري، فتوح ص ٤٣٧.
(١٠) الطبري، ج ٣ ص ٦١٤.
(١١) البلاذري، فتوح، ص ٤٣٨.
(١٢) ابن سعد، الطبقات، ج ٥ ص ٢٥٥، ج ٦ ص ١٥١.
(١٣) المصدر السابق، ج ٥ ص ٢٥٥، البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ١٣٦، الطبري ج ٥ ص ٢٤٢.
(١٤) ابن سعد، ج ٥ ص ٢٥٥، البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ١٣٦.
(١٥) Byantium, An Introduction to East Roman Civilization, ed. Norman H.Baynes and H.sr. K.Moss, Oxford, the Clarendon Press, P.75.
(١٦) الطبري، ج ٨ ص ١٧٧، ١٧٨، الأزدي، تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، القاهرة،

الدعم لمعاوية وللحكم الأموي في الشام أصبح عاملاً أساسياً في منح الشرف في العطاء؛ ففي الأخبار الطوال للدينوري، أن معاوية قال لعمرو في معركة صفين: «قدّم عَكّ والأشعريين فإنهم كانوا أول من انهزم في هذه الجولة، فأتاهم عمرو فبلغهم قول معاوية، فقال رئيسهم مسروق العكي، انتظروني حتى آتي معاوية، فأتاه فقال: افرض لقومي في ألفين ألفين، ومن هلك منهم فابن عمه مكانه، قال: ذلك لك[17]». وكان يفرض أحياناً لأشخاص في شرف العطاء لإعجاب الخلفاء بتصرفاتهم، فهذا معاوية يأمر ليزيد ابن شجرة الرهاوي بخمسمائة ألف درهم ويأمر بزيادة عطائه ألفاً، ويقول: «لقد ظلمك من جعلك في ألف من العطاء وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين وكماة أو حماة أهل صفين» وما ذلك كما يقول الجاحظ إلا لأنه وفاه حق الرياسة وأحسن الاصغاء إليه ولم يهتم بالدم الذي سال على وجهه بسبب حجر عائر[18].

ويمكننا أن نستنتج من نص يورده البلاذري أن من بلغ سناً يجب أن يعطى شرف العطاء، لا سيما وأن في الطبري نصوصاً تشير إلى مكانة ذوى السن[19]. فقد كتب أبو بكر بن محمد بن عمر بن حزم إلى عمر بن عبد العزيز: «أن قوماً من الأنصار قد بلغوا أسناناً ولم يبلغ عطاؤهم الشرف، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر اثباتهم في شرف العطاء فليفعل». فكتب إليه عمر «.... وأما ما ذكرت عن أمر الرجال الذين بلغوا سناً ولم يبلغ عطاؤهم الشرف، فإنما الشرف شرف الآخرة والسلام[20]».

وبالرغم من أن مقدار ما يدفع في شرف العطاء لم يكن بالدرجة التي تجعل ممن يأخذه غنياً إلا أنه كان يعتبر شرفاً عظيماً يستحق التسجيل، وقد استدعى فرض نظام

١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ص٢٥٦. ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ليدن ١٩٣٠م ص١٤٣. البلاذري، فتوح ص ٤٤٢.

(١٧) الدينوري، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، وزارة الثقافة والإرشاد، الإقليم الجنوبي، ص١٨٦، (كان ما فرض لعك في أيام عمر بن الخطاب ٣٠٠ درهم) الطبري ج ٤ ص ٩١.

(١٨) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، بيروت ١٩٧٠ ص ٦٢.

(١٩) الطبري، ج ٤ ص ١٣٠، ج ٤ ص ٣١٩.

(٢٠) صالح أحمد العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، دار الطليعة، بيروت ١٩٦٩م، ص١٥٣، عن البلاذري، أنساب الأشراف ج ٣ ص ١٣٩. مخطوطة القاهرة.

العطاء إلى تصنيف الناس حسب قبائلهم وأصولهم، فنشط النسابون لتدوين الأنساب، وتصنيف القبائل حسب أصولها وأجذامها فتجددت معالم الرابطتين العدنانية والقحطانية، وكان لهذا التدوين أثره في عناية القبائل بأنسابها وحرصها على تدوينها، وأدى ذلك إلى تعصبها لنسبها واعتزازها به وميلها إلى القبائل التي تربطها بها رابطة النسب والقربى، وهكذا نرى أن وضع ديوان العطاء قد أدّى عن طريق غير مباشر إلى ظهور الروابط القبلية وشيوع المعارف النسبية وأدّى بالتالي إلى ظهور العصبية في صورها المختلفة.

وأما عامل صحبة الرسول ونصرته لدعوته، فقد كان له أثره في الشام واضحاً لا سيما زمن الخلافة الراشدة والفترة السفيانية، وما أكثر الصحابة الذين اشتركوا في الفتح من المهاجرين والأنصار، وقد بلغ عددهم حسب ما ورد في كتاب الطبقات ١١٣ صحابياً[٢١]، ويبدو أن حمص كانت ملتقى لأصحاب الرسول، فعن أبي مسلم الخولاني أنه دخل مسجد حمص، فإذا فيه نحواً من ثلاثين كهلاً من أصحاب النبي (صلعم[٢٢]) وأدرك كثير بن مرّه الحضرمي في حمص سبعين بدرياً من أصحاب رسول الله، ولذلك كان يسمى الجند المقدّم[٢٣].

وكان لخروج هذا العدد الكبير من الصحابة مجاهدين وتوزعهم في الأجناد دور كبير في إرساء قواعد الدين وتفقيه الناس وتعليمهم دينهم وسننهم، فكانوا أساتذة لمن خلفهم، وقد تفقه معظم أفراد الطبقة الأولى من التابعين في الشام على يد عبادة بن الصامت وأبي الدرداء ومعاذ بن جبل[٢٤]، وكلهم من الأنصار، بالإضافة إلى أخذهم الحديث عن أبي بكر وعمر، فمنذ أن كتب يزيد بن أبي سفيان إلى عمر بن الخطاب

---

(٢١) ابن سعد، الطبقات، ج ٧ قسم ٢ ص ١١١ ــ ١٥١.

(٢٢) المصدر السابق ج ٧ قسم ٢ ص ١١٥.

(٢٣) المصدر السابق ج ٢ قسم ٢ ص ١٥٧. وقد جاء في مخطوطة ابن حبيش أن جند حمص إنما سمي بالجند المقدم لأنها كانت ادناها من الروم ودمشق والأردن وفلسطين كلهن وراءها، ابن حبيش، الفتوح ص ١٨٤.

(٢٤) تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧ ص ٢١٣، ج ٦ ص ٢٩٠، ج ٦ ص ٣٤٣.

«أن أهل الشام كثير، وقد احتاجوا إلى من يعلمهم القرآن ويفقههم»، أرسل عمر مُعاذ ابن جبل وعُبادة بن الصامت وأبا الدرداء، وطلب منهم أن يبدأوا بحمص، ثم أن يخرج واحد منهم إلى دمشق وآخر إلى فلسطين، فأقام عبادة في حمص وخرج أبو الدرداء إلى دمشق ومعاذ إلى فلسطين[٢٥]، واتبع عمر في الشام سياسة خاصة لنشر الدين وهو بناء مسجد في كل مكان فيه كنيسة[٢٦]، ولذلك انتشرت المساجد في بلاد الشام، وتابع الأمويون هذه السياسة في بنائها[٢٧]، وأصبحت المساجد هي دور العلم في العصر الأموي، والمراكز التي يتدفق عليها الناس طلباً لسماع الحديث، ولا نجد ذلك في مساجد مراكز الأجناد فقط بل في الساحل كذلك، فعن شُراحيل العنسي قال: «أتيت بيروت أنا وعمير بن هانيء العَنسي، فإذ نحن برجل عليه الناس في المسجد، فإذا عليه قميص كرابيس إلى نصف ساقيه، وقلنسوة صغيرة، يقال له حيان بن وبرة المُرّي، فقلت لعمير بن هانيء، أمِن أصحاب رسول الله (صلعم) هو؟ قال: لا ولكنه صاحب لأبي بكر[٢٨]» وقد أمدّ الله بعمر بعض هؤلاء الفقهاء من الصحابة، فقد توفي وائله بن الأصقع بن عبد العزى سنة ٨٥ هـ وقيل سنة ٨٣ هـ وكان ينزل بيت المقدس ومات فيها، ولكنه كان يمر بدمشق وحمص حين يشهد المغازي[٢٩]، وكان آخر

---

(٢٥) المصدر السابق، ج٧ ص ٢١٣.

(٢٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ١ ص ٥٢١.

(٢٧) البلاذري، فتوح، ص ١٣٥، ١٤٨، ١٤٩، ولعل أهم المساجد التي بنيت في الشام هي قبة الصخرة، المسجد الأقصى، ومسجد بني أمية، ومسجد الرملة، وقد أظهرت النقوش التي كانت تزين داخل قبة الصخرة بوضوح روح مناظرة المسيحية، فالكتابات بالرغم من تأكيدها على نبوة المسيح وأنه نبي حق فإن عبارة «لا شريك له» قد تكررت خمس مرات في هذه النقوش، كذلك سطرت الآيات ٣٤ ــ ٣٧ من السورة ١٩ (سورة مريم) هذه الآيات التي تنكر بشدة بنوة عيسى إلى الله، وكتب بعناية فائقة دعاء «اللهم صلّ على رسولك وعبدك عيسى بن مريم» وهذا دليل على أن مناظرة المسيحية والرغبة في إظهار روح رسالة الإسلام كانتا واردتين أثناء تشييد قبة الصخرة الشهيرة. (جواتيابن، س. د دراسات في التاريخ والنظم الإسلامية، تعريب وتحقيق الدكتور عطية القوصي، الكويت ١٩٨٠ ص ٤٤. ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج ١ القسم الأول ص ٣١.

(٢٨) تهذيب، ج ٥ ص ٢١، ٢٢، القاضي عبد الجبار الخولاني، تاريخ داريا، تحقيق سعيد الأفغاني، مطبوعات المجمع العلمي العربي، ١٣٦٩ هـ ١٩٥٠ م ص ٩٤.

(٢٩) ابن سعد، الطبقات، ج٧ قسم ٢ ص ١٢٩.

من توفي بالشام من أصحاب رسول الله (صلعم) عبد الله بن بُسر المازني توفي في خلافة الوليد بن عبد الملك[٣٠]، وتوفي أبو أُمامة الباهلي قبله بسنتين ٨٦ هـ[٣١]، وكان عمرو البكائي يعتبر أفقه من بقى على وجه الأرض من أصحاب رسول الله (صلعم[٣٢]).

بالإضافة إلى هؤلاء الصحابة من الفقهاء الذين كان يحوطهم المسلمون بكثير من الاحترام والرعاية كان للصحابة المراتب القيادية في حركة الفتح في الشام والجزيرة كأبي عبيدة بن الجرّاح، وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنه وعياض بن غنم، وسعيد بن عامر بن حذيم، وعمير بن سعد، ومعاوية بن أبي سفيان، وقد توفي أبو عبيدة ويزيد وشرحبيل في طاعون عمواس، وتوفي الباقون في أواخر خلافة عمر وأوائل خلافة عثمان، أما معاوية الذي كان له الدور الأكبر في فتح عدد كبير من مدن الساحل، فقد استطاع أن يحتل مكانة رفيعة في الشام فهو من أصحاب رسول الله، كما أنه حصل على ثقة أبي بكر وعمر وعثمان، فولاه عمر جند دمشق والأردن إثر وفاة أخيه[٣٣]، ثم جمع له عثمان الجزيرة والشام كلها[٣٤]، وتمتع معاوية في خلافة عثمان بصلاحيات واسعة[٣٥]، استطاع أن يستغلها في جعل ولاية الشام وحدة منسجمة تنقاد له[٣٦]، وجعل ولاته على الأجناد من قادة الفتوح من الصحابة أو أبنائهم. فقد عين عبد الرحمن بن خالد بن الوليد «لعظم قدره في أهل الشام ولما كان عندهم من آثار أبيه خالد بن الوليد[٣٧]»، على جند حمص[٣٨]، وولى على قنسرين حبيب بن مسلمة

---

(٣٠) المصدر السابق، ج٧ قسم ٢ ص ١٣٣.
(٣١) المصدر السابق، ج٧ قسم ٢ ص ١٣١.
(٣٢) المصدر السابق، ج٧ قسم ٢ ص ١٣٨.
(٣٣) الطبري، ج ٤ ص ٦٢، ص ٢٨٩.
(٣٤) البلاذري، فتوح، ص ١٨٣، ١٨٨، ١٨٩.
(٣٥) الطبري ج ٤ ص ٣٣١.
(٣٦) المصدر السابق، ج ٤ ص ٥٦٢، ابن الأثير، ج ٣ ص ١٩٧، القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٠٦.
(٣٧) مصعب الزبيري، نسب قريش، ص ٣٢٤، ٣٢٥.
(٣٨) الطبري، ج ٤ ص ٤٢١، ٤٢٦.

الفهري القرشي[٣٩]، وعلى الأردن أبو الأعور السلّمي[٤٠]، عمرو بن سفيان من بني سليم من بطون قيس عيلان[٤١]، وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكناني[٤٢]، وعلى البحر عبد الله بن قيس الفزاري[٤٣]، وعلى القضاء أبو الدرداء[٤٤]. ونلاحظ أن ولاة معاوية في خلافة عثمان كانوا كلهم من القيسية وأنه عينهم في المناطق التي كان لهم فيها ذكر نابه كما يتبين لنا ذلك من تتبع أعمالهم، أما أبو الدرداء فقد كان أنصارياً خزرجياً، وكان قد عينه قاضياً منذ خلافة عمر بن الخطاب وبأمر منه.

وقد استطاع هؤلاء الولاة أن يفرضوا احترامهم على القبائل العربية التي رأينا أن معظمها كانت إما قضاعية أو يمانية، بحيث أن الشام هي الولاية الوحيدة التي لم تشترك في الثورة على عثمان، ونلاحظ أن عبد الرحمن بن خالد بن الوليد يدعم معاوية تجاه الذين أخرجهم أشراف أهل الكوفة وصلحاؤهم بأمر من عثمان إلى معاوية لاقناعهم بالعودة إلى جادة الصواب، فلما أعياه ذلك وقف عبد الرحمن بن خالد موقفاً حازماً منهم حتى شعر أنهم تابوا[٤٥]. وخيرهم بين آن يقيموا أو بين أن يخرجوا، وفي رواية ثانية أن عبد الرحمن أنزلهم الساحل وأجرى عليهم رزقاً[٤٦].

---

(٣٩) حبيب بن مسلمة له صحبة ورواية، وجاهد في خلافة أبي بكر وشهد اليرموك أميراً (الذهبي، سيرة أعلام النبلاء ج٣ ص١٨٨) وولاه أبو عبيدة أنطاكية واستعمله عمر بن الخطاب على عجم الجزيرة وحربها (الطبري ج ٤ ص ٣٥، ابن العديم، زبدة الحلب، ص٣٧).

(٤٠) الطبري ج ٤ ص ٤٢١.

(٤١) ابن عبد ربه، العقد الفريد ج ٣ ص ٣٥٣، وهو من قادة الفتوح اشترك في معركة اليرموك (الطبري ج ٣ ص ٣٩٦) وكان من القادة الذين وجههم أبو عبيدة إلى فحل والذي صالح أهل طبريه، (الطبري ج ٣ ص ٤٣٨، ٤٤٢، ٤٤٤، ٦٠٥).

(٤٢) الطبري ج ٤ ص ٤٢١ وعلقمة بن حكيم قائد من الصحابة دخل دمشق مع خالد وتوجه مع مسروق إلى ايلياء وعينه عمر بن الخطاب على نصف فلسطين وأنزله الرملة (الطبري ج٣ ص ٤٤١، ٦٠٨، ٦١٠).

(٤٣) الطبري ج ٤ ص ٤٢١.

(٤٤) عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي، أبو الدرداء، وفي الحديث، عويمر حكيم أمتي، ونعم الفارس عويمر، ولاه معاوية القضاء في دمشق بأمر من عمر بن الخطاب، (الذهبي، سير أعلام النبلاء) ج ٣ ص ٣٣٥ــ ٣٥٢.

(٤٥) الطبري، ج ٤ ص ٣٢٢.

(٤٦) المصدر السابق، ج ٤ ص ٣٢٦.

وعندما جمع عثمان الأمراء ليستشيرهم فيما قد صنع الناس، كان معاوية الوحيد الذي أشار عليه أن يأمر أمراءه أن يكفيه كل رجل ماقِبلَه «واكفيك أنا أهل الشام[٤٧]» ذلك أنه كان واثقاً من تضامن أهل الشام معه كافة بعكس بقية الأمراء الذين اقترحوا عليه آراء مختلفة، وعندما تنقل عبد الله بن سبأ اليهودي الذي أسلم في خلافة عثمان يحاول ضلالة الناس لم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر[٤٨].

بالإضافة إلى المكانة التي احتلها الصحابة وقادة الفتوح وأبناؤهم في بلاد الشام فإن معاوية أدرك بثاقب بصره منذ أن كان والياً على الشام مدى الفائدة السياسية التي يجنيها من مصاهرة قبيلة كلب أقوى القبائل القضاعية بالشام وأكثرها عدداً، فاختار له ميسون بنت بحدل الكلبي التي أنجبت له ابنه يزيد، وقد حققت الأحداث بعدئذ سداد نظرة معاوية، إذ كان لقبيلة كلب اليد الطولى في تأييد خلافة يزيد وفي تثبيت دعائم الحكم الأموي في الشام، ثم جرى خلفاء بني أمية على خطة مؤسس دولتهم في الإصهار إلى القبائل لكسب تأييدها، وكانوا يؤثرون الإصهار إما إلى قبيلة كلب القضاعية وإما إلى قبيلة قيس المضرية، ويبرز من بين الأسر القيسية التي حرص بنو أمية على مصاهرتهم اسم آل عقيل بن علّفة المرّي، وكانت أسرته من أعرق الأسر القيسية شرفاً وأنبهها ذكراً، ومن هنا رغب الخلفاء من بني أمية وأمراؤهم وولاتهم في الإصهار إليه على الرغم مما عرف به من شدة الجفاء والعنجهية[٤٩].

كذلك أدرك معاوية أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه أشراف القبائل بالإضافة إلى أشراف أهل بيته، فكان لايقر أمراً قبل أن يستشيرهم، ولذلك فانه عندما قتل عثمان وأرسل علي جريراً بن عبد الله البجلي يدعوه إلى الدخول في طاعته والبيعة له أو

---

(٤٧) المصدر السابق، ج ٤ ص ٣٤٠.

(٤٨) المصدر السابق، ج ٤ ص ٣٤٠.

(٤٩) ابن حزم، جمهرة الأنساب، ص ٢٤١، الأغاني ج ١٣ ص ٢٥٤، ابن عبد ربه، العقد الفريد، كتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب ج ٣ ص ٤١٥، كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن ج ٦ ص ٩٨.

الإيذان بالحرب، استعان معاوية بأشراف أهل بيته، فنصحه أخوه عتبه أن يستعين على أمره بعمرو بن العاص الذي بيّن له أنه ليس لمعاوية مثل سابقة علي وقرابته[٥٠]، وأنه لا يستطيع أن يتصدى لعلي ويدعو أهل الشام لبيعته، إلا بعد أن يحصل على دعم أشراف الشام له، وأنه إذا حصل على تأييد شُرَحبيل بن السمط الكندي رأس أهل الشام فانه يحصل على تأييد أهل الشام كافة[٥١]، وانه لمما يثير الدهشة إذا صدقت رواية الدينوري أن نرى تأثير شرحبيل على القبائل في الأجناد، أما رواية سيف في الطبري فتشير إلى أن معاوية استغل قميص عثمان المخضب بالدماء والذي وضعه على المنبر، وكتب بالخبر إلى الأجناد، فثاب إليه الناس، «وآلى الرجال من أهل الشام ألاّ يأتوا النساء ولا يمسهم الماء للغسل إلاّ من احتلام، ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان[٥٢]» ووقفت القبائل العربية في الشام كلها إلى جانب معاوية في معركة صفين، قيسية، ويمانية وقضاعية[٥٣]، إلاّ بعض الصحابة كأبي الدرداء، وأبي أمامة الباهلي اللذين رفضا الاشتراك ولحقا ببعض السواحل ولم يشهدا شيئاً من تلك الحروب[٥٤]. وبالرغم من أن أهل الشام كانوا قلة بالنسبة إلى أتباع علي، فقد كان مع معاوية قوم «لا يقولون إذا سكت، ويسكتون إذا نطق ولا يسألون إذا أمر، ومع علي قوم يقولون إذا قال ويسألون إذا سكت، ولذلك فقليله خير من كثيره[٥٥]». وكذلك يشير القزويني إلى أن معاوية قد تمشى له الأمر لأنه كان في أطوع جند بينما كان علي في أعصى جند وهم أهل العراق[٥٦].

كان من نتيجة معركة صفين أن ازداد نفوذ القبائل اليمانية التي نصرت معاوية وليس أدل على ذلك مما قاله الضحاك بن المنذر بن سلامة بن ذي قابس الحميري

---

(٥٠) الدينوري، الأخبار الطوال، ص١٥٨.
(٥١) المصدر السابق، ص ١٥٩.
(٥٢) الطبري، ج ٤ ص ٥٦٢.
(٥٣) الدينوري، الأخبار الطوال ص ١٧٢.
(٥٤) المصدر السابق ص ١٧٠.
(٥٥) الدينوري، المصدر السابق ص ١٥٥، الذهبي، سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ١٤١.
(٥٦) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٢٠٦.

لمعاوية: «نحن نصرناك ومنعناك يوم صفين، ونصرناك على الانصار والمهاجرين، وآثرناك على الامام التقي، فبنا علوت المنابر ولولا نحن لم تعلها[٥٧]». ونجد أشراف قبائل اليمن وساداتها، حيوة بن شريح الكلاعي، وكريب بن أبرهة بن شرحبيل، ويزيد بن حبيب المرادي، وناتل بن قيس الجذامي، وفروة بن المنذر الغسّاني كلهم يتخذون الموقف نفسه ويبينون له صراحة أنه إذا مالأ بني نزار ولم يآس بينهم وبين قومه فسوف يكون هو الخاسر، لأنهم أكثر منه نفراً وجمعاً[٥٨]، ولذلك نجد معاوية في خلافته ثم يزيداً من بعده يتجهان اتجاهاً مختلفاً في تعيين ولاة الأجناد فيعمدان إلى انتقائهم من زعماء القبائل حسبما توفر لهم من استقرار وكثرة فكانت قنسرين والجزيرة بأيدي عمال من عرب الشمال أو القيسية بينما كانت حمص والأردن وفلسطين بأيدي عمال من عرب الجنوب أو قضاعة، فكان زفر بن الحارث الكلابي عاملاً لمعاوية ويزيد على قنسرين والجزيرة، ومالك بن هبيرة السكوني على حمص في خلافة معاوية[٥٩]، والنعمان ابن بشير الأنصاري في خلافة يزيد وحسان بن مالك بن بحدل الكلبي عاملاً لمعاوية ثم ليزيد على فلسطين والأردن[٦٠]. ونلاحظ أن معاوية لاينقاد لليمانية تماماً لأنه استطاع بمصاهرته لقبيلة كلب أن يحقق نوعاً من التوازن، وانضمام قضاعة إليه منحه تأييداً حربياً وسياسياً عظيم الخطر، إلا أن هذا التأييد كان له شروطه، وهو أن يفرض معاوية لألفي رجل منهم ألفين، ألفين، وان مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه، وأن يكون لهم الأمر والنهي وصدر المجلس، وكل ما كان من حل وعقد فعن رأي ومشورة منهم[٦١]، ولكن معاوية الرجل الإداري يعمد إلى الاستفادة من كل أصحاب الكفاءات من القبائل المختلفة أو من شيعته المخلصين، فكان كاتب رسائله غسّانيا، واستخدم حميريا على ديوان الخاتم وهو عبد الله بن محصن الحميري، وعلى ديوان الجند عمرو بن سعيد ابن العاص[٦٢]. وعلى شرطته قيس بن حمزة الهمداني، ثم زمل بن عمرو العذري،

(٥٧) تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧ ص ٣٠.
(٥٨) المصدر السابق، ج ٧ ص ٣١.
(٥٩) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٦ ص ١٤٥.
(٦٠) الطبري، ج ٥ ص ٥٣١، البلاذري، أنساب، ج ٥ ص ١٢٧.
(٦١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٨٦.
(٦٢) الجهشياري، الوزراء والكتاب، الطبعة الأولى، القاهرة ص ٢٤.

وهناك رواية تشير إلى أن الضحاك بن قيس الفهري كان على شرطة معاوية قبل وفاته بينما تذكر رواية أخرى إلى أنه كان والياً على دمشق[٦٣]، أما في مجال القضاء فقد جعل معاوية الأولوية للصحابة والتابعين من الفقهاء، فقد عين فضاله بن عبيد الأنصاري[٦٤]، فلما توفي سنة ٥٣ هـ استقضى أبا ادريس عائذ الله بن عبد الله الخولاني[٦٥]. واشتهر عدد من القادة كأمراء للصوافي والشواتي، وكان معاوية يعينهم حسب كفاءاتهم القيادية دون النظر إلى انتماءاتهم القبلية، فكان منهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد[٦٦]، ومالك بن هبيره السكوني من رؤساء كنده[٦٧]، وفضالة بن عبيد الأنصاري سنة ٥٠، ٥١ هـ[٦٨] وسفيان بن عوف الأزدي الذي كان من الصحابة القادة فقد كان مع أبي عبيدة حين افتتحت دمشق، وولاه معاوية الصوائف، وعندما أدركه أجله في أرض الروم استخلف على الناس عبد الرحمن بن مسعود الفزاري[٦٩]، بالرغم من أنه أبعد العرب نسباً منه وذلك «لأن له نية حسنة وعفافاً»: ولما بلغت وفاته معاوية كتب إلى أمصار المسلمين وأجناد العرب ينعاه، فبكى الناس عليه في كل مسجد، وكان معاوية بعد ذلك إذا رأى خللاً في الصوائف قال «واسفياناه ولا سفيان لي[٧٠]».

سار يزيد على خطى والده في تعيين ولاة الأجناد من سادات القبائل، كما أنه كان يعتمدهم في القضايا التي كانت تعترضه، فعندما بلغ يزيد بن معاوية ما فيه عبد الله بن الزبير من بيعته الناس واجتماعهم إليه دعا بعشرة من وجوه أصحابه وهم يمثلون

---

(٦٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٣ ص ٢٤٢.

(٦٤) المصدر السابق، ج ٣ ص ١١٤ ــ ١١٦.

(٦٥) خليفة بن خياط، ج ١ ص ٢٧٦، الطبري ج ٥ ص ٣٣٠، الجهشياري، ص ٢٤، وأبو ادريس الخولاني، تابعي فقيه وكان عالم أهل دمشق (الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٤ ص ٢٧٢، ٢٧٦).

(٦٦) الطبري ج ٥ ص ١٠٧، ٢١٢، ٢٢٦، ٢٢٧.

(٦٧) المصدر السابق ج ٥ ص ٢٢٧، ٢٢٩.

(٦٨) المصدر السابق ج ٥ ص ٢٣٤، ٢٥٣.

(٦٩) تهذيب تاريخ دمشق ج ٦ ص ١٨٤.

(٧٠) المصدر السابق، ج ٦ ص ١٨٥.

مختلف القبائل في الشام، النعمان بن بشير الأنصاري، وشريك بن عبد الله الكناني، وزمل بن عمرو العذري، ومالك بن هبيرة السكوني، وعبد الله بن عضاة الأشعري، وروح بن زنباع الجذامي، وأبو كبشه السكسكي، وسعيد بن عمرو الهمداني، وعبد الله بن مسعدة الفزاري، وعبد الرحمن بن مسعود الفزاري[٧١]، وطلب منهم التوجه إلى الحجاز وأن يعظموا حق ابن الزبير وحق أبيه وأن يخبروه بالذي بلغ يزيدا عنه، ثم أن يسألوه بعد ذلك أن يلزم الطاعة ولا يفارق الجماعة[٧٢]، وبرهن يزيد بعمله هذا عن رغبة صادقة في التفاهم مع عبد الله بن الزبير، وأخذ البيعة منه بالرفق، وأشهد على ذلك أفراد الوفد كله، ومن ثم وقفت الأجناد كلها إلى جانب يزيد في حربه ضد أهل المدينة وعبد الله بن الزبير[٧٣] وبالرغم من أن سادات القبائل وأشرافهم بقيت لهم مكانتهم في العهد المرواني[٧٤] إلاّ أن اخراج الأمويين وشيعتهم من المدينة ومكة وتوجههم إلى الشام ومعركة مرج راهط وما نجم عن ذلك من احتدام للعصبيات دفعت عبد الملك رغبة منه في ابقاء الوحدة الداخلية لما لها من أهمية كبرى في تثبيت دعائم الحكم، لأن يوسد إمارة الأجناد إلى أبنائه وإخوته، أو أفراد من الفرع المرواني[٧٥]، واتبع الوليد أسلوب والده فأسند جند دمشق والأردن وحمص إلى أبنائه عبد العزيز، وعمر بن الوليد، وعباس بن الوليد، أما جند فلسطين فقد ولى عليه أخاه سليمان بن عبد الملك[٧٦]، وتابع الخلفاء هذا النهج ماعدا عمر بن عبد العزيز الذي اتبع أسلوب معاوية في تعيين عمال وفق الأكثرية القبلية في المنطقة، فعين عبيد بن الحسحاس

---

(٧١) البلاذري، أنساب، ج ٤ قسم ٢ ص ٢٠، ابن الأعثم، فتوح ٥ ص ٢٧٩.

(٧٢) ابن الأعثم، فتوح، ج ٥ ص ٢٨٠.

(٧٣) الطبري، ج ٥ ص ٤٩٣، البلاذري، أنساب، ج ٤ قسم ٢ ص ٣٣، اليعقوبي تاريخ، ج ٢ ص ٢٥١، تاريخ الخلفاء لمؤرخ مجهول، ص ١٩٧؛ ابن الأثير ج ٤، ص ١١٢، تهذيب تاريخ دمشق ج ٧ ص ٦٠.

(٧٤) النويري، نهاية الأرب ج ٢١ ص ١٣١ (زفر بن الحارث وابناؤه هذيل وكوثر) تهذيب، ج ٥ ص ٣٤٠ (روح بن زنباع الجذامي) ابن عبد ربه ج ٣ ص ٣٨٢، الطبري ج ٥ ص ٤١٢ (قبيصة بن ذؤيب الخزاعي).

(٧٥) خليفة بن خياط، ج ١ ص ٣٩٣، ٣٩٤.

(٧٦) المصدر السابق ج ١ ص ٤١٧.

العذري على دمشق، وعبادة بن نسي الكندي على الأردن، والنضر بن يريم بن ابرهة الصباح على فلسطين، ويزيد بن حصين السكوني على حمص والوليد بن هشام بن الوليد بن عقبة على قنسرين، أي أن الولاة كلهم كانوا من قبائل يمانية أو قضاعة سوى والي قنسرين[٧٧].

ونظراً لاعتماد الخلفاء على أمراء البيت الأموي في شؤون الإدارة والحكم وقيادة الحملات، أصبح أفراد البيت الأموي يتمتعون بامتيازات متعددة، فكانت لهم جوائز وأرزاق لحراسهم وقطائع[٧٨]، وكثر عدد من سكن بدمشق من بني أمية، وأصبحت منازلهم وقصورهم أكثر منازل دمشق[٧٩]، كما انتشرت القصور الأموية في بلاد الشام انتشاراً واسعاً، ولم تكن مقتصرة على منطقة معينة، بل نجدها تمتد من جنوبي الأردن الحالي، إلى الجزيرة الفراتية شمالاً، ومن جوف الصحراء شرقاً حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط[٨٠]. ولكن الآثار الباقية للقصور الأموية تعود كلها إلى فترة الوليد بن عبد الملك وما بعدها، أي في الفترة التي تحقق فيها المجد السياسي والتوسع الأقصى للدولة الإسلامية شرقاً وغرباً، وما تبع ذلك من ازدهار اقتصادي وغنى مادي، كما أن كثرة القصور التي وجدت أطلالها في البادية تشير إلى شدة صلة الخلفاء والأمراء من بني أمية بالبادية، مما دفع بعض المستشرقين والمؤرخين العرب إلى القول بأن الخلفاء الأمويين أولاً ثم امراءهم ورجالات دولتهم ثانياً تركوا المدن واتجهوا إلى البادية لسببين، هروبهم من أوبئة المدن، ومناخاتها الفاسدة، ثم حبهم للبادية حيث يتعلم الأمراء اللغة العربية الفصحى[٨١] بالإضافة إلى متعة الصيد الصحراوي؛ ويشير كريزول في كتابه

---

(٧٧) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٦٥.

(٧٨) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٢٥؛ ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ٢ ص ٢١.

(٧٩) اليعقوبي، البلدان ص ٣٢٦.

(٨٠) فؤاد أحمد طوقان، الحائر، بحث في القصور الأموية، عمان ١٩٧٩، ص ٥٧ــ ١٠٩.

(٨١) حتي، تاريخ العرب مطول، ج ٢ ص ٢٣٨، عبد الحق، إعادة تشييد جناح قصر الحير الغربي في متحف دمشق، الحوليات الأثرية السورية، العدد الأول ١٩٥١ ص ٧.

إلى أن الأمويين لم يطمئنوا إلى حياة المدن تماماً كالعرب البداة، كما أن غرائزهم كانت بدوية، كما يتكلم عن الحياة نصف البدوية للخلفاء الأمويين المتأخرين[٨٢].

أما غرترود بِل Gertrud Bell فانها حين تتكلم عن تبدي الأمويين تقول: هذه المقرات الصحراوية، إنما هي حاصل طبيعي منطقي لفترة التحول الحضاري التي برز الأمويون خلالها وهي فترة الانتقال الصعب من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار، هذه المقرّات تشهد على أن دعوة القفار الفسيحة كانت ملحة، تلك الدعوة التي صورها بأمانة شعراء القرن الأول الهجري ورواة الأدب، وقد كانت الصحراء بالنسبة للعربي أكثر من مكان للسكنى، كانت حامي تقاليده القديمة، تلك التقاليد الأكثر رسوخاً من الإسلام نفسه...، ثم تقول: أما الخلفاء الأمويون فقد رجعوا إلى سيرة آبائهم الأولين، فهربوا إلى البادية إلى المراعي الربيعية في البراري المتصلة[٨٣]. إن بعض الأسباب التي يذكرها هؤلاء المؤرخون وعلماء الآثار صحيحة، وبعضها بعيد عن الدقة العلمية، فالتبدي والهروب من الطاعون والأوبئة عبارات تتردد في مصادرنا العربية، ففي الطبري على لسان أحمد بن زهير أن هشاماً كان ينزل الرصافة، وكان سبب نزوله إياها أن الخلفاء وأبناء الخلفاء كانوا يتبدون ويهربون من الطاعون فينزلون البرية خارجاً عن الناس[٨٤]. كما يذكر الطبري في احداث سنة ١٢٦ هـ أن الشام كانت وبية فخرجوا إلى البوادي. وكان يزيد بن الوليد متبدياً، كما أن عامل الوليد بن يزيد على دمشق، خاف الوباء فنزل قطنا[٨٥].

أما افتراض علماء الآثار الإسلامية أن الأمويين كانوا بدوا قبل توليهم الخلافة، ولذا كان حنينهم إلى الصحراء التي انبتتهم، فان بني أمية في الجاهلية والإسلام كانوا أهل حاضرة ومدنية، كانوا ارستقراطية مكة وأكثر شخصياتها أخذاً بأسباب الحضارة

---

(٨٢) Creswell. Early Muslim Architecture, Oxford, The Clarendon Press. 2nd. ed. Vol. I PP. 402-403.

(٨٣) Gertrud Bell. Palace and Mosque at Ukhaidir, Oxford, The Clarendon Press, 1914, P. 55.

(٨٤) الطبري، ج٦ ص ٣٢٢.

(٨٥) المصدر السابق، ج٧ ص ٢٠٦، ٢٤٠، ٢٤٤؛ بلاذري، فتوح، ص١٨٤؛ ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج٢ ص١٠٥.

والمدنية، ولعل الأمويين لم يخرجوا من مكة إلا إلى الطائف[٨٦]، التي كانت تعتبر مصيفاً لأهل مكة، أما الصحراء فكانت طريقهم الشاقة التي تسلكها قوافلهم، فإذا أتينا إلى قضية خروج الأمويين إلى البوادي طلباً للعربية الفصحى، فقد أرسى علماء اللغة قواعد راسخة بخصوص صفاء اللغة العربية، وقرروا بالاجماع أن الذين ينطقون اللغة العربية الفصحى هي ست قبائل، ثلاث منها رئيسية وثلاث تليها مرتبة من حيث الفصاحة والسلامة في اللغة، وهي قيس وتميم وأسد ثم تليها هذيل، وبعض كنانه، وبعض الطائيين[٨٧]، أي أن علماء اللغة اعتمدوا على كلام القبائل في قلب جزيرة العرب وردوا كلام القبائل التي على السواحل أو في جوار الأعاجم[٨٨]. فلم يأخذوا عن غسّان أو تغلب أو إياد لأنهم جاوروا الفرس والروم والسريان[٨٩]. ولم يأخذوا شيئاً عن أهل اليمن، «لأنهم ذوو لسان ما هو بلساننا[٩٠]» ولو تفحصنا مجموع القبائل المقيمة في البادية الشامية لرأينا أن معظمها من يمن وقضاعة كغسان وكلب، وهؤلاء نقضوا شرطاً هاماً وهو مجاورتهم للأعاجم، «وأكثرهم نصارى يقرأون في صلاتهم بغير العربية[٩١]»، واعتقد أن التحليل الذي قدمه الدارسون للآثار في سورية للأسباب التي دفعت الأمويين إلى بناء هذه القصور في أماكن حساسة من البادية هي أسباب منطقية، فقد تبين لهم أن هذه القصور كانت تلعب أدواراً عديدة، منها عمران البادية، الإشراف على النظام والأمن، وتسهيل السفر بإيجاد محطات ومنازل فيها، كما أن هذه القصور كانت منتجعاً للقبائل وزعمائها يلتقون فيها بالخلفاء والأمراء الأمويين، الذين كثيراً ما كانوا يحتكون بأمراء القبائل فيحلون مشاكلهم ويختلطون بهم ويتزوجون منهم ليكسبوا قوة في البادية تؤازرهم وتحميهم[٩٢].

---

(٨٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤ ص ١٢.

(٨٧) السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق أحمد صبحي فرزات، استانبول، مطبعة كلية الآداب، ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م ص ٢٧، ٢٨.

(٨٨) سعيد الأفغاني، في أصول النحو. دمشق، ١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م ص ١٥.

(٨٩) السيوطي، المصدر السابق، ص ٢٨.

(٩٠) الجمحي، طبقات الشعراء، ص ٤.

(٩١) السيوطي، المصدر السابق، ص ٢٨.

(٩٢) دليل المتحف الوطني بدمشق ص ١٨٣ ــ ١٨٤.

ويستنتج سوفاجيه Sauvajet بعد مسح أثري للمواقع الأموية في بوادي حماة وتدمر ومآب والبلقاء وشمال سورية والجزيرة الفراتية أن جميع تلك المنشآت الأموية لها طابع ثابت محدد هو: «قصر تلازمه مجموعة أبنية وتوجد فيه آثار استغلال زراعي[٩٣]». ويؤكد سوفاجيه على نظريته مستنداً إلى نصوص تاريخية، تذكر الاقطاعات التي كان الخلفاء يقتطعونها لأمراء البيت الأموي ولاشراف القبائل وكبار رجالاتها، ويورد الدكتور عبد العزيز الدوري أمثلة كثيرة عن هذا الاتجاه في منح الأمراء والاشراف الضياع والاقطاع التي أدّت إلى ظهور طبقة جديدة من الملاكين الكبار من العرب في الشام وأن الاشراف تحولوا إلى ارستقراطية ملاكه[٩٤]. كما أن الدكتور الدوري يشير إلى اهتمام القبائل في نهاية العصر الأموي بالزراعة وانتقالهم من ملاّكين غائبين أو مقاتلين متمركزين في مراكز معينة إلى طور الاهتمام بالزراعة ومزاولتها، ولئن كانت المشاكل القبلية أيام الرشيد سبباً لتعريفنا بهذه القرى، فان استقرار القبائل على الأرض لم يقتصر على منطقة دمشق بل شمل مناطق أخرى مثل منطقة حمص وفلسطين[٩٥].

تميزت الفترة المروانية كذلك بازدياد اعتماد الخلفاء الأمويين إما على امراء من الفرع المرواني أو على ولاة من أهل الشام لإدارة الولايات ذات الأهمية الكبرى، فقد عين عبد الملك أخاه بشر بن مروان والياً على الكوفة وخلّف معه جماعة من أهل الرأي والمشورة من أهل الشام، منهم روح بن زنباع الجذامي[٩٦]. وعين خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي القرشي على البصرة ثم عزله وضم البصرة لأخيه بشر، ثم لم يلبث أن ولّى الحجاج بن يوسف الثقفي الذي يمكن أن نعتبره في عداد أهل الشام بالرغم من أنه ولد ونشأ في الطائف، إلا أنه انتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع فكان في

---

(٩٣) Jean Sauvajet, Chateaux Omayyades de Syrie, Contribution a L'etude de la Colonisation Arabe aux Ier. et er.siecles de L'Hegire, Revue des Etudes Islamiques XXXV 1967, pp. 1-52-

(٩٤) د. عبد العزيز الدوري، العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الإسلام، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، ١٩٧٤، ص ٣٠.

(٩٥) المصدر السابق، ص ٣١.

(٩٦) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١١٠.

عديد شرطته[٩٧]. ثم ما زال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر جنده ولذلك فان له دوراً بدمشق منها دار الزاوية[٩٨]، وبعد قضائه على عبد الله بن الزبير ولاه مكة والمدينة والطائف[٩٩]، ثم أصبح والياً على العراق سنة ٧٥ هـ والمشرق كله. ورغم تحامل معظم المصادر على الحجاج، إلا أنها تكاد تجمع على أمانته وعدم تلاعبه بأموال الدولة أو محاباته لأقربائه وأصهاره والمقربين إليه، وأنه كان يؤثر مصلحة الدولة على أي اعتبار آخر[١٠٠]، واستطاع الحجاج بعد اخماده لثورات الخوارج ثم لثورة ابن الأشعث في خلافة عبد الملك أن يقطف ثمار جهده الطويل وأصبح العراق ترفرف عليه رايات السلام والهدوء وانصرف الحجاج إلى الاصلاح والإعمار لاسيما وأن الفتن والثورات قد خرّبت الكثير، وأصبح الالتفات إلى الناحية العمرانية أمراً ضرورياً، وكان الحجاج كالخليفة الوليد يحب العمران وتحسين الضياع وتنظيم الري وتعمير الأرض وكري الترع والأنهار وتجفيف المستنقعات، وقد أنتج في هذا الحقل انتاجاً خصباً نجد ثبتاً موسعاً له في الطبري والبلاذري، مما لا ضرورة لذكره هنا، والكثير من الفتوحات العسكرية التي تمت زمن الخليفة الوليد، كان الحجاج صاحب الفضل في المبادرة للقيام بها، فهو الذي بعث قتيبة بن مسلم الباهلي عامله على خراسان لفتح منطقة ما وراء النهر، فأتم قتيبة ما ندب من أجله ووصل إلى حدود الصين، وهو الذي سير محمد بن القاسم الثقفي لفتح حوض نهر السند بالهند، كما أنه هو الذي جهز الجيوش وسيرّها للفتح، وهو الذي كان يجمع الأموال التي تنفق على هذه الجيوش من ولايته وهو الذي كان يحث القادة العسكريين على المضي قدماً في غزوهم ويمدهم بآرائه ونصائحه، وأغلب الظن أنه لولا كل هذا الذي قام به الحجاج لما استطاع عبد الملك وابنه الوليد من بعده أن يسجلا للدولة الأموية في زمنهما كل هذه المفاخر في التوسع واستتباب الأمن، وقد استمرت ولاية الحجاج على العراق مدة عشرين سنة ومات في خلافة الوليد بن عبد

---

(٩٧) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٥ ص ١٤، ابن خلدون المقدمة، ج ٢ ص ٨١٨ ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ١١٢.

(٩٨) تهذيب تاريخ دمشق، ج ٤ ص ٥١.

(٩٩) الطبري، ج ٦ ص ١٩٣.

(١٠٠) إحسان صدقي العمد، الحجاج بن يوسف الثقفي، بيروت، ص ٣٧٠.

الملك، وكان المنصور يتمنى لو أن الله هيأ له حكاماً كالحجاج في إخلاصه وطاعته للوليد[١٠١].

لم يكن الحجاج الوالي الشامي الوحيد الذي حكم العراق، بل إن كل ولاة العراق باستثناء يزيد بن المهلب في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ــ ٩٩ هـ) كانوا من أهل الشام فعدي بن ارطاة الفزاري الذي عينه عمر بن العزيز والياً على البصرة كان من أهل دمشق[١٠٢]، وكذلك عمر بن هبيرة الفزاري[١٠٣] الشامي الذي ولي العراقين ليزيد بن عبد الملك (١٠١ ــ ١٠٥ هـ) بعد عزل أخيه مسلمة بن عبد الملك[١٠٤]. فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ) عزل عمر بن هبيرة وعين خالد بن عبد الله القسري والياً على العراق (١٠٥ ــ ١٢٠ هـ) وكان جده يزيد من صحابة رسول الله قد نزل الشام[١٠٥]. ويذكر ابن عساكر أن خالد بن عبد الله القسري من أهل دمشق، وداره بدمشق وإليه ينسب الحمام الذي يقابل باب قنطرة سنان بباب توما[١٠٦]. واستعمل هشام كذلك جنيد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الحارث من أهل دمشق على السند وخراسان[١٠٧]، وولي الحارث بن عمرو الطائي الذي كان قد ولي امرة البلقاء في خلافة عمر بن عبد العزيز على أرمينيه سنة ١٠٧ هـ وأضاف إليه اذربيجان سنة ١٠٨ هـ[١٠٨] وفي سنة ١٢٠ هـ عزل هشام بن عبد الملك خالد بن عبد الله القسري، وولي يوسف بن عمر الثقفي الذي كانت منازل أهله في البلقاء[١٠٩]، على العراق واستمر والياً على العراق وخراسان حتى زمن يزيد بن الوليد بن

---

(١٠١) تهذيب تاريخ دمشق ج ٤ ص ٧١.
(١٠٢) الزركلي، الاعلام ج ٥ ص ٨، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٥ ص ٥٣.
(١٠٣) الذهبي، المصدر السابق، ج ٤، ص ٥٦٢.
(١٠٤) الطبري، ج ٦ ص ٦٠٤، ٦٠٥.
(١٠٥) ابن سعد، الطبقات، ج ٧ قسم ٢ ص ١٢٣.
(١٠٦) تهذيب ج ٥ ص ٧١؛ مصعب الزبيري، نسب قريش ص ٩؛ ابن الأثير، ج ٥ ص ٢٧٩.
(١٠٧) تهذيب تاريخ دمشق ج ٣ ص ٤١٥.
(١٠٨) المصدر السابق، ج ٣ ص ٤٥٦.
(١٠٩) الزركلي، الاعلام ج ٩ ص ٣٢٠.

عبد الملك الذي ولّى منصور بن جمهور الكلبي من سكان المزّة من ضواحي دمشق[١١٠]، على أن ولايته لم تطل إذ أن يزيدا عزله وأرسل عوضاً عنه عبد الله بن عمر ابن عبد العزيز وكان محبوباً من العراقيين وله بين الناس مكانة مستمدة من مكانة أبيه[١١١]، وكان آخر ولاة العراق يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري[١١٢]، من قنسرين[١١٣]، من رجال مروان البارزين.

أما في مصر، فكان أول وال شامي عليها سعيد بن يزيد الأزدي من أهل فلسطين عيّنه يزيد بن معاوية سنة ٦٢ هـ بعد وفاة مسلمة بن مخلد، فلما قدم سعيد والياً على مصر تلقاه عمرو بن قحذم الخولاني، فقال: «يغفر الله لأمير المؤمنين أما كان فينا مائة شاب كلهم مثلك يولي علينا أحدهم[١١٤]» وقد بقي سعيد بن يزيد والياً على مصر حتى وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ، فلما دعا إبن الزبير لنفسه بعث بعبد الرحمن بن جحدم الفهري فقدمها في طائفة من الخوارج فاعتزلهم سعيد بن يزيد، وعندما بويع مروان بن الحكم بالشام في ذي القعدة سنة ٦٤ هـ سار مروان إلى مصر ومعه خالد بن يزيد بن معاوية وعمرو بن سعيد وحسان بن مالك بن بحدل ومالك بن هبيرة السكوني وعدد كبير من أشراف الشام[١١٥]. فدخلها في جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ وجعل ولايتها لابنه عبد العزيز الذي بقي والياً عليها (٢٠) سنة حتى وفاته سنة ٨٥ هـ[١١٦]، وإذا تركنا جانباً من ولي مصر من أمراء بني أمية[١١٧]، لوجدنا أن

---

(١١٠) ابن حزم، الجمهرة، ص ٤٢٨، الزركلي، الاعلام ج ٩ ص ٣٢٠.

(١١١) الطبري، ج ٧ ص ٢٨٤.

(١١٢) المصدر السابق، ج ٧ ص ٣٧٦.

(١١٣) المصدر السابق، ج ٧ ص ٢٣٧.

(١١٤) الكندي، الولاة والقضاة، مطبعة الأباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨ ص ٤٠.

(١١٥) الكندي، ص ٤٢.

(١١٦) المصدر السابق، ص ٤٩ ــ ٥٠.

(١١٧) بالإضافة إلى عبد العزيز بن مروان وليها عبد الله بن عبد الملك (الكندي ص ٥٨) ومحمد بن عبد الملك (المصدر السابق ص ٧٢) والحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم وليها الهشام بن عبد الملك ثلاث سنين (المصدر السابق ص ٧٤).

ولاتها الشاميين كثيرون، منهم قرة بن شريك القيسي القنسريني[١١٨]، والذي كان كاتباً للوليد بن عبد الملك[١١٩]، ويعتبر قرة من أقدر ولاة مصر، دخلها في شهر ربيع الأول سنة ٩٠ هـ[١٢٠]، وبقي والياً حتى وفاته سنة ٩٦ هـ، وكان من أهم أعماله تدوين الديوان، وهو التدوين الثالث في مصر. وعين يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان الكلبي الدمشقي والياً على مصر سنة ١٠١ هـ[١٢١]، ويعود لبشر هذا الفضل في التدوين الرابع في مصر، وهو الذي رأى افتراق قضاعة في القبائل فكتب إلى يزيد بن عبد الملك يسأله الأذن في استخراج من كان في القبائل منهم فيجعلهم دعوة منفردة فأذن له يزيد في ذلك، فأخرج مهرة من كنده، وأخرج تنوخا من الأزد وجهينة مع أهل الراية فجعلهم مع سائر قضاعة دعوة منفردة[١٢٢]. وفي سنة ١٠٢ هـ ورد كتاب يزيد بن عبد الملك على بشر بتأميره على افريقية فاستخلف أخاه حنظلة وهو من أهل دمشق كذلك[١٢٣]، فأقرّه يزيد، فلما مات وخلفه هشام بن عبد الملك صرفه سنة ١٠٥ هـ[١٢٤]، ثم أعاده سنة ١١٩ هـ[١٢٥] فأقام إلى سنة ١٢٤ هـ عندما ورد كتاب هشام بتوليته افريقية.

وكان أول من دخل افريقية من أهل الشام في زمن بني أمية حسّان بن النعمان الغسّاني[١٢٦]، وكان له الدور الأكبر في توطيد الفتح في افريقية، فقد استقامت له بعد القضاء على الكاهنة[١٢٧]، وعمد إلى تدوين الدواوين وتنظيم الخراج وفرضه على عجم

(١١٨) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٤ ص ٤٠، الكلبي، جمهرة النسب ص ١٨٢/آ.
(١١٩) النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ٣٣٥.
(١٢٠) الكندي، ص ٦٤.
(١٢١) تهذيب تاريخ دمشق، ج ٣ ص ٢٤٥، ويبين أن ابن يونس في كتابه تاريخ الغرباء يذكر أنه دمشقي.
(١٢٢) الكندي ص ٧٠.
(١٢٣) تهذيب ج ٥ ص ١٤.
(١٢٤) الكندي ص ٧٢.
(١٢٥) المصدر السابق ص ٨٠.
(١٢٦) المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية، تحقيق حسين مؤنس مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١م ص ٣١.
(١٢٧) ابن عبد الحكم، فتوح مصر ص ١٧٣. المالكي، رياض النفوس ص ٣١، ٣٢، ابن عذارى ج ١ ص ٢٣.

افريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية[١٢٨]، واتجه إلى إنشاء قاعدة بحرية جديدة تحل محل قرطاجنة ويتوافر لها الحماية والابتعاد عن غارات البيزنطيين، وهذه القاعدة البحرية هي تونس التي تتميز بأنها غير مفتوحة على البحر مثل قرطاجنة[١٢٩]، ولم يكتف حسّان ببناء مدينة تونس وإنما طلب من عبد الملك بن مروان أن يرسل إليه من يعمر دار الصناعة بتونس ويعلم المسلمين صناعة السفن في المغرب، فكتب الخليفة عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز والي مصر أن يوجه لتونس ألف قبطي بأهله وولده، وأن يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا إلى ترشيش أي تونس[١٣٠].

وأكمل موسى بن نصير[١٣١] فتح المغرب كله وفتح الأندلس وساهم موسى في نشر الإسلام في المغرب الأقصى، فترك في طنجة سبعة عشر رجلاً من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام[١٣٢]، وعمد موسى كذلك إلى توسيع دار الصناعة وشق القناة التي توصل بين ميناء رادِس وبين تونس على طول اثنى عشر ميلاً، وبفضل تلك القناة أصبحت المدينة مشتى للمراكب تحميها من العواصف والأنواء[١٣٣]، كما أنه أمر بصناعة مائة مركب[١٣٤]، واهتمام ولاة بني أمية بدار الصناعة بتونس هو الذي مهّد وساعد على غزو صقلية في أيام زيادة الله الأول بن ابراهيم الأغلبي[١٣٥].

وقد رأينا أن بشر بن صفوان ولي افريقية سنة ١٠٣ هـ، وعندما وفد سنة ١٠٥ هـ على يزيد بن عبد الملك وجده قد هلك، فردّه هشام سنة ١٠٥ هـ إلى

---

(١٢٨) ابن عبد الحكم ص ٢٠١، ابن عذارى ج ١ ص ٢٩.

(١٢٩) سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي، دار المعارف بمصر، ص ٢٠٢.

(١٣٠) ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ١٣٨٦ هـ، ص ٣٢، ٣٣.

(١٣١) موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي، المختلف على أصله بين عربي صريح أو مولى. كان أبو نصير على حرس معاوية (ابن خلكان، وفيات الاعيان ج ٢ ص ١٣٤) ونشأ موسى في دمشق وكان على خراج البصرة ثم التحق بعد ذلك بعبد العزيز بن مروان (ابن عذارى ج ١ ص ٣٢)، (الاعلام ج ٨ ص ٢٨٥).

(١٣٢) ابن عذارى، ج ١ ص ٣٦، ابن الأثير، ج ٤ ص ٣٢.

(١٣٣) ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ٢ ص ٥٧.

(١٣٤) المصدر السابق، ج ٢ ص ٥٧.

(١٣٥) المقريزي، الخطط، ج ٣ ص ٥.

افريقية حيث بقي والياً حتى وفاته سنة ١٠٩ هـ فكانت ولايته سبع سنين، وكان أهم أعماله غزوه لصقلية[١٣٦]، ثم عين هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن السُلَّمي وهو ابن أخي أبي الأعور السُلَّمي صاحب خيل معاوية بصفين، فقدم افريقية سنة ١١٠ هـ وعزل سنة ١١٤ هـ حيث توجه إلى الشام بهدايا وتحف عظيمة[١٣٧]، وعندما انتقض البربر سنة ١٢٢ هـ في ولاية عبيد الله بن الحبحاب أرسل هشام كلثوم ابن عياض القشيري أمير مدينة دمشق والياً على افريقية والمغرب، فلما قتل في المعركة التي قادها ضد البربر بعث هشام إلى افريقية سنة ١٢٤ هـ حنظلة بن صفوان الكلبي عامله على مصر منذ سنة ١١٩ هـ حيث استطاع القضاء على الخوارج في معركتين هما معركتا القرن والأصنام، وبقي والياً حتى دعا عبد الرحمن بن حبيب الفهري إلى نفسه، وأراد حنظلة الخروج إليه والزحف لقتاله، ثم كره قتال المسلمين، إذ أنه كان كما يقول ابن عذاري، ذا ورع ودين فترك افريقية سنة ١٢٩ هـ[١٣٨].

وهكذا نرى كثرة الولاة من العرب الشاميين في العراق ومصر وافريقية ودورهم الكبير في التنظيم والإدارة، والفتوح وعمران الأرض ونشر الإسلام في ربوع الدولة الإسلامية وفي دعم حكم بني أمية فيها.

الموالي

الموالي في نظر مؤرخي التاريخ الإسلامي هم المسلمون من غير العرب، فكان كل فرد من غير العرب من أبناء الدولة الإسلامية يصبح مولى إذا اعتنق الإسلام ويقف على قدم المساواة مع أخيه العربي المسلم لا فرق بينهما ولا فضل لأحدهما على الآخر إلاّ بالتقوى، وقد تجلّت معالم المساواة بين العرب والموالي منذ فجر تاريخ الدولة الإسلامية عندما فرض عمر بن الخطاب لسلمان الفارسي في أربعة آلاف درهم وفرض للهرمزان

---

(١٣٦) ابن عذارى، ج ١ ص ٤٨.

(١٣٧) المصدر السابق، ج ١ ص ٥٠.

(١٣٨) المصدر السابق، ج ١ ص ٦٢.

في ألفين من العطاء[١٣٩] . كما فرض عمر لكبار دهاقين فارس والعراق الذين أسلموا، تقديراً لخدماتهم للدولة الفتية[١٤٠]، وكتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد «ومن اعتقتم من الحمراء فأسلموا فألحقوهم بمواليهم لهم مالهم وعليهم ما عليهم، وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم أسوة في العطاء[١٤١]» . وعندما بلغ عمر بن الخطاب أن قوماً قدموا على عامل فأعطى العرب وترك الموالي، كتب إليه «أما بعد فبحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم والسلام[١٤٢]» أي أن عامل العطاء كان له دوره في تحديد المساواة بين العرب والموالي وتحديد مكانتهم الاجتماعية، فإلى أي مدى طبقت هذه المساواة في الشام في العصر الأموي؟

الروايات المتعلقة بالموالي في الشام محدودة إذا قيست بتلك المتعلقة بالعراق والجناح الشرقي، ذلك أن القبائل العربية المتنصرة كانت تشكل نسبة لا يستهان بها كما رأينا، وعندما دخل أفراد هذه القبائل بالإسلام أصبحت مرتبتهم كالعرب المسلمين سواء بسواء، ومن أسلمٌ من أهل الذمة من غير العرب على أرض الخراج رفعت الجزية عن رأسه وانتقلت أرضه إلى أصحابه من أهل قريته يؤدون خراجها عنها وأسلموا له ماله ورقيقه وفرضوا له في ديوان المسلمين[١٤٣] . وهؤلاء كانت نسبتهم قليلة لأن دخولهم في الإسلام كان بطيئاً كما سنشير إلى ذلك أثناء الكلام عن أهل الذمة، أما الروايات القليلة التي تشير إلى الروم الذين دخلوا في الإسلام فليس فيها ما يوحي بأنه كان يستهان بهم وليس فيها إشارات إلى أنهم نظموا حياتهم الاجتماعية في بادىء الأمر بالانضمام إلى أقوى القبائل العربية كما فعل الأساورة مثلاً الذين انضموا إلى بني تميم لأنهم أقرب الأحياء نسباً إلى رسول الله[١٤٤]، وإنما كونوا قبيلة وحدهم، وإذا اعتمدنا

---

(١٣٩) البلاذري، فتوح ص ٤٤٣ .

(١٤٠) المصدر السابق ص ٤٤٢ .

(١٤١) المصدر السابق ص ٤٤٤ .

(١٤٢) المصدر السابق ص ٤٤٣ .

(١٤٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق، المجلدة الأولى ص ٥٩٣ .

(١٤٤) البلاذري، فتوح ص ٣٦٦، الطبري ج ٤ ص ٩٠، ويذكر البلاذري في صدد الحديث عن تمصير الكوفة أنه كان مع رستم يوم القادسية أربعة آلاف يسمون جند شاهنشاه، فاستأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبوا ←

رواية الواقدي، نجد أن حاكم قلعة حلب دخل في الإسلام ودخل معه من كان يخدمه بحلب وأن ثلاثة آلاف فارس من فرسان الروم قد دخلوا في الإسلام واشتركوا في فتح الساحل[١٤٥]، ودخل مع عمرو بن العاص من الشام قوم من العجم يقال لهم الحمراء وهم قوم من الروم فيهم بنوبَنَّة، وبنو الأزرق، وبنو روبيل، فنزل هؤلاء كما يقول ابن عبد الحكم الحمراء التي بالقنطرة[١٤٦] ويبدو أن الجماعات الفارسية التي أسكنها معاوية الساحل ألفت قبائل وحدها كذلك، إذ ليست لدينا إشارات إلى انضمامهم إلى قبائل عربية، وهذا دليل على عدم لجوء كل المسلمين من غير العرب إلى الولاء في الشام منذ البدء، بعكس ما حدث في العراق، فهل يعني ذلك أن هؤلاء المسلمين كانوا يشعرون من جهة أن سيطرة الدولة واعتبارها الضمان للمشاركة كان أقوى في الشام منه في العراق، وأن العصبية القبلية كانت متخلخلة في الشام، وأن قوى المبادىء الإسلامية التي تؤكد على المساواة كانت واضحة جلية فيها[١٤٧]؟ هذا فيما يتعلق بالجماعات، أما الأفراد فكان منهم من يلجأ إلى الولاء ومنهم من لا يلجأ، فالأدركون كان قسيساً أسلم على يد خالد بن الوليد حين فتح دمشق وأصبح اسمه أبا اسحق القرشي مولى خالد بن الوليد وإلى أحد أحفاده سنان تنسب قنطرة سنان بنواحي باب توما[١٤٨]، بينما نجد أن أبا عبد رب الزاهد كان رومياً اسمه قسطنطين، فلما أسلم تسمّى عبد الرحمن[١٤٩]، ويبدو أن موالي العتاقة هم الذين كانوا يحملون اسم عشيرة سيدهم مرفقة بكلمة مولى[١٥٠] إشارة إلى أن رابطتهم هي رابطة اجتماعية لا رابطة دم، وأغلب الظن

→ وبحالفوا من أحبوا وبفرض لهم في العطاء، فأعطوا الذي سألوه، وحالفوا زهرة بن حوية السعدي من بني تميم، وأنزلهم سعد حيث اختاروا وفرض لهم في ألف ألف.

(١٤٥) الواقدي، فتوح الشام ج ٢ ص ١٧.

(١٤٦) ابن عبد الحكم، فتوح مصر ص ١٢٩.

(١٤٧) عندما يتكلم الدكتور عبد العزيز الدوري عن الموالي في العراق يشير إلى أن ظاهرة عدم اللجوء إلى الولاء هي ظاهرة بدأت في العصر الأموي في العراق وليس كما هو الأمر في الشام. مقدمة في التاريخ الاقتصادي، بيروت، ١٩٦٩م ص ٤٢، ٤٣.

(١٤٨) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤ ص ٤٠٦.

(١٤٩) أبو زرعة، تاريخ أبي زرعة، ج ١ ص ٢٤٧، ٣٦٨.

(١٥٠) كتب عمر إلى بعض عماله: الموالي ثلاثة، مولى رحم، ومولى عتاقه، ومولى عقد، فمولى الرّحم يرث ←

أن نسبة كبيرة من الموالي في الشام كانوا موالي عتاقة، إما من الرقيق الذي كان موجوداً قبل الفتح أو من الرقيق الذي كان يؤلف الخمس من الأسرى أو السبي والذي كان يرسل إلى المدينة أولاً ثم إلى دمشق بعد أن أصبحت عاصمة للدولة الإسلامية، ولذلك فإن هؤلاء كانوا من أصول مختلفة، فارسية، رومية، بربرية، تركية، وكان لموالي العتاقة مكانتهم عند خلفاء وامراء بني أمية، فهذا أبو حفصة يزيد من سبي إصطخر اشتراه عثمان فوهبه لمروان بن الحكم، فشهد أبو حفصة الدار مع مروان[١٥١]، فلما جرح يومئذ احتمله أبو حفصه وداواه حتى برىء، فأعتقه مروان وزوجه أم ولد يقال لها سُكَّر، كانت له منها بنت يقال لها حفصة، فحضنها فكني أبو حفصة، فحفصة بنت مروان، وكان مروان إذا ولي المدينة وجه أبا حفصة إلى اليمامة، وكانت مضافة إلى المدينة ليجمع مافيها من المال ويحمله إليه[١٥٢]، وكان لأبي حفصة مولى مروان بن الحكم ابن يقال له مروان وكان شجاعاً مجرّباً أمدّ به عبد الملك بن مروان الحجاج وقال له: قد بعثنا إليك مولاي ابن أبي حفصة، وهو يعدل ألف رجل فشهد معه محاربة ابن الأشعث، فأبلى بلاء حسناً وعقرت تحته عدة خيول، فاحتسب بها الحجاج عليه من عطائه، فشكاه إلى عبد الملك، فعوّضه ما كان أغرمه الحجاج[١٥٣]، وعندما خطب يحيى بن أبي حفصة إلى مقاتل بن طلبة بن قيس بن عاصم المنقري، ابنته وأختيه، أنعم له بذلك، وبعث إلى بنيه سليمان وعمر وجميل فزوجهن بنيه[١٥٤]، وكان ميمون الجُرجماني عبداً رومياً لبني أم الحَكَم أخت معاوية بن أبي سفيان وهم ثقفيون، وإنما نسب إلى الجَراجمة لاختلاطه بهم وخروجه بجبل لبنان معهم، فبلغ عبد الملك عنه بأس وشجاعة، فسأل مواليه أن يعتقوه، ففعلوا فعهد إليه بقيادة جماعة من الجند وصيره بأنطاكية، فغزا مع مسلمة بن عبد الملك وهو على ألف من أهل أنطاكية[١٥٥]،

ويورث، ومولى العتاقة، يورث ولا يرث، ومولى العقد لا يرث ولا يورث وميراثه لعصبته، (ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤ ص ٤٣٦).

(١٥١) الطبري، ج ٤ ص ٣٧٩، ٣٨٠.

(١٥٢) الأغاني، ج ١٠ ص ٧٥.

(١٥٣) المصدر السابق، ج ١٠ ص ٧٥.

(١٥٤) المصدر السابق، ج ١٠ ص ٧٥.

(١٥٥) البلاذري، فتوح، ص ١٥٥.

واعتمد سحيم بن المهاجر في القضاء على ثورة الجراجمة في جبل اللُّكام في خلافة عبد الملك بن مروان بجيش من موالي عبد الملك وموالي بني أمية بالإضافة إلى جند من ثقات جنده[١٥٦] وأرسل عبد الملك أربعين رجلاً من أهل فرغانه مع رجل من بصرى للقبض على الحارث الكذّاب الذي ادّعى النبوة وطلب منهم أن ينطلقوا معه ويطيعوه[١٥٧]. وفي رواية عن ابن لهيعة أن معاوية فرض للموالي خمسة عشر فبلغهم عبد الملك عشرين ثم بلغهم سليمان خمسة وعشرين، ثم قام هشام فأتم للأبناء منهم ثلاثين[١٥٨]. وأغلب الظن أن هذا المبلغ هو بالدينار وأنه فريضة موالي العتاقة، فعن أبي بكر بن أبي مريم أن عمر بن عبد العزيز جعل العرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء غير أنه جعل فريضة المولى المعتق خمسة وعشرين ديناراً[١٥٩]، وفي تاريخ أبي زرعة أن عمر بن عبد العزيز أجرى على عمرو بن المهاجر كل شهر عشرين ديناراً، وعمرو بن المهاجر مولى أسماء ابنة يزيد بن السكن الأنصاري[١٦٠]، مولى الأنصار، وهذا يشير إلى أن موالي العتاقة كانوا يأخذون العطاء إذا سجلوا في ديوان المقاتلة، وكان هؤلاء يسجلون ضمن القبائل التي ينتسبون إليها، فعن رجاء بن حيوة أنه قال: أنا ممن أنعم الله عليه بالإسلام وعدادي في كندة[١٦١]، وكان مكحول فيمن افترض في العطاء فكان يأخذه ويتقوى به على جهاد العدو[١٦٢]. وكان بكير بن ماهان من موالي بني مسلية يسكن الأردن من الشام وكان من أهل الديوان قبل أن يغزو مع يزيد بن المهلب خراسان ويدخل معه جرجان حين فتحت[١٦٣]، وألحق الأوزاعي في الديوان وضرب عليه بعث إلى اليمامة وهناك التقى بيحيي بن أبي كثير فقرر متابعة علمه فترك الديوان[١٦٤].

---

(١٥٦) ابن الأثير، ج ٤ ص ٣٠٤.

(١٥٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣ ص ٣٢٤.

(١٥٨) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤ ص ٤٠.

(١٥٩) ابن سعد، الطبقات، ج ٥ ص ٢٧٧.

(١٦٠) أبو زرعة، تاريخ، ج ١ ص ٢٧٧.

(١٦١) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٣٧.

(١٦٢) المصدر السابق، ج ١ ص ٣٢٨؛ ابن سعد، الطبقات، ج ٢ قسم ٢ ص ١٦١، ومكحول الدمشقي من أهل كابل وكان لعمرو بن سعيد بن العاص فوهبه لرجل من هذيل بمصر فأعتقه.

(١٦٣) أخبار الدولة العباسية، أخبار العباس وولده، تحقيق د. عبد العزيز الدوري، د. عبد الجبار المطلبي، بيروت ص ١٩١.

(١٦٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء ج ٧ ص ١٠٩، يعتبر محمد بن سعد، الاوزاع بطن من همدان وان الاوزاعي

كان للفقهاء من الموالي مكانة كبيرة لدى الخلفاء، والأمراء وأهل الشام، فهذا رجاء بن حيوة مولى بني كندة[١٦٥]، كان زاهد بني أميه وهو الحاكم في دولتهم برأيه[١٦٦] وعن مسلمة بن عبد الملك أن في كندة لثلاثة إن الله عز وجل ينزل بهم الغيث وينصر بهم الأعداء، رجاء بن حَيوة، وعُباده بن نسي، وعَدي بن عَدي، وكان رجاء بن حيوة يعتبر سيد أهل فلسطين، كما اعتبر عبادة بن نسي سيد أهل الأردن، وعدي بن عدي سيد أهل الجزيرة[١٦٧].

وكان ميمون بن مهران عالم الجزيرة ومفتيها أعتقته امرأة من بني نصر بن معاوية بالكوفة فنشأ بها ثم سكن الرقة[١٦٨]، وكان يعتبر مع مكحول والحسن البصري والزهري علماء الناس في زمن هشام بن عبد الملك، وكل هؤلاء الفقهاء من الموالي إلا الزهري، وعندما اتهم الزهري بأنه لا يحدث عن الموالي قال: اني لأحدث عنهم، ولكن إذا وجدت أبناء أصحاب رسول الله (صلعم) من المهاجرين والأنصار فما أصنع بغيرهم[١٦٩]، أي أن الزهري يؤمن بأن المكانة الأولى في نقل الحديث إنما هي لأبناء المهاجرين والأنصار ومن ثم للفقهاء من الموالي.

ازداد الاعتماد في الشؤون الإدارية ولا سيما في الدواوين على الموالي في الفترة المروانية، فكان أبو الزعيزعة مولى عبد الملك على الرسائل وسليمان بن سعد مولى خشين على الخراج والجند بعد أن ترجم ديوان الشام إلى العربية[١٧٠]، وبقي سليمان بن سعد على الخراج والجند في خلافة الوليد وسليمان ابني عبد الملك[١٧١]، وكان جناح

هو من أنفسهم، أما البخاري، والهيثم بن خارجه فيرون أنه لم يكن من الأوزاع بل نزل فيهم ويذكر أبو زرعة الدمشقي أن أصله من سبي السند، وأنه ولد سنة ٨٨ هـ، الذهبي، ج ٧ ص ١١٦.

(١٦٥) أبو زرعة، تاريخ، ج ١ ص ٣٣٧.

(١٦٦) العيون والحدائق ج ٤ ص ٣٨، ٩٠.

(١٦٧) أبو زرعة، المصدر السابق ج ١ ص ٣٣٧، الذهبي ــ سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٣٢٤.

(١٦٨) الذهبي ــ المصدر السابق، ج ٥ ص ٧١.

(١٦٩) المصدر السابق ج ٥ ص ٣٤٤.

(١٧٠) خليفة بن خياط ــ تاريخ ــ ج ١ ص ٣٩٥.

(١٧١) المصدر السابق ج ١ ص ٤١٨، ٤٣١، ٤٣٢.

مولى الوليد بن عبد الملك على الرسائل، وعمرو بن الحارث مولى عامر بن لؤي على الخاتم، ثم جمع الوليد لجناح مولاه الرسائل والخاتم[١٧٢]، وكان ليث بن أبي رقية مولى أم الحكم بنت أبي سفيان كاتب الرسائل للخليفة سليمان بن عبد الملك، ونعيم بن أبي سلامة مولى لأهل اليمن على الخاتم وعبد الله بن عمرو بن الحارث مولى بني عامر بن لؤي على بيوت الأموال والرقيق والنفقات[١٧٣]. وبقي الليث بن أبي رقية كاتباً للرسائل في خلافة عمر بن عبد العزيز[١٧٤]، ثم أصبح سالم مولى سعيد بن عبد الملك كاتب الرسائل في خلافة هشام بن عبد الملك، وعَبد الله بن الحَبحاب مولى بني سلول على الخراج والجند، ثم ولاه خراج مصر وجعل مكانه سعيد بن عقبة مولى بني الحارث بن كعب، وعلى الخاتم الربيع بن شابور مولى بني الحريش، وعلى الخاتم الصغير والخاصة اصطخر أبو الزبير مولاه[١٧٥]، وكان من أشهر من نبغ من الكتاب الموالي عبد الحميد يحيى بن سعد العامري بالولاء المعروف بالكاتب وتلميذ سالم مولى هشام بن عبد الملك[١٧٦].

كذلك ازداد اعتماد الخلفاء على الموالي الشاميين في إدارة ولاية افريقية، فقد عين سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد مولى قريش من الشام والياً على افريقية، فكانت ولايته سنتين وأشهر وسار كما يقول ابن عذارى «أحسن سيرة وأعدلها في افريقية[١٧٧]». وفي سنة ١٠٠ هـ. ولّى عمر بن عبد العزيز اسماعيل بن أبي المهاجر، أبو عبد الحميد الدمشقي مولى بني مخزوم[١٧٨]، ولاية افريقية «وبها من بها من قريش وغيرهم[١٧٩]» وكان قبل ذلك مؤدباً لأولاد عبد الملك من عاتكه، يزيد ومعاوية ومروان[١٨٠]، وكان من أهم أعماله حرصه على نشر الإسلام بين البربر، حتى أسلم

---

(١٧٢) المصدر السابق ج ١ ص ٤١٨، ٤١٩.
(١٧٣) خليفة بن خياط ج ١ ص ٤٣١، ٤٣٢.
(١٧٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٦٨.
(١٧٥) المصدر السابق ج ٢ ص ٥٤٥.
(١٧٦) الذهبي ــ سير أعلام النبلاء ج ٥ ص ٤٦٢.
(١٧٧) ابن عذارى، ج ١ ص ٤٤، ٤٥.
(١٧٨) الذهبي، المصدر السابق، ج ٥ ص ٣١٣، أبو زرعة، ج ١ ص ٣٢٨. ابن عذارى ج ١ ص ٤٥.
(١٧٩) أبو زرعة، ج ١ ص ٣٤٨.
(١٨٠) المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٨.

بقية البربر بافريقية على يديه، كما أنه علّم أهل افريقية الحلال والحرام وبعث معه عمر ابن عبد العزيز عشرة من التابعين أهل علم وفضل[١٨١].

وفي خلافة هشام بن عبد الملك أصبح عبيد الله بن الحبحاب مولى بني سلول[١٨٢]، عاملاً على الخراج في مصر وظل عاملاً على الخراج إلى أن عين والياً على افريقية سنة ١١٦ هـ[١٨٣] وقد امتد نفوذه إلى عزل الولاة في مصر وتوليتهم برضى الخليفة[١٨٤]، ويعود لعبيد الله بن الحبحاب الفضل في نقل قيس إلى مصر سنة تسع ومائة[١٨٥]، ولم يكن بها أحد منهم قبل ذلك، إلاّ ما كان من فَهم وعَدوان، فوفد ابن الحبحاب على هشام بن عبد الملك فسأله أن ينقل إلى مصر منهم أبياتاً فأذن له هشام في لحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم إلى مصر على الا ينزلهم الفسطاط[١٨٦] وقد ساعد وجود العرب في القرى واشتغالهم بالزراعة على الاختلاط بالأهالي، وكان لهذا الاختلاط أثره في انتشار الإسلام بمصر نتيجة للتزاوج أو للموالاة بينهم وبين الأهالي، ولذلك يقول المقريزي «ولم ينتشر الإسلام في قرى مصر إلاّ بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب قيساً بالحوف الشرقي، فلما كان بالمائة الثانية من سني الهجرة كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها[١٨٧]. ويرى لين بول Lane Poole ان الذي دعا عبيد الله بن الحبحاب إلى إحضار قيس إلى مصر هو ما رآه من عدم انتشار الإسلام بين الاقباط[١٨٨].

وعندما قدم عبيد الله بن الحبحاب افريقية والياً، أرسل حبيب بن أبي عبده على رأس جيش إلى السوس وأرض السودان، كما يبدو أنه قام بعمليات تنظيمية في

---

(١٨١) ابن عذارى، ج ١ ص ٤٦.
(١٨٢) خليفة بن خياط، ج ٢ ص ٥٤٥.
(١٨٣) ابن عذارى ج ١ ص ٥٠.
(١٨٤) الكندي، ص ٧٤، ٧٥.
(١٨٥) المقريزي، الخطط ج ١ ص ١٤٦.
(١٨٦) الكندي ص ٧٦، ٧٧، المقريزي، الخطط ج ١ ص ١٤٦، ١٤٧.
(١٨٧) المقريزي، البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب، القاهرة ١٣٥٦ هـ ص ٥٠ ــ ٥١.
(١٨٨) Lane Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925, P. 28.

المغرب الأقصى بتقسيمه إلى قسمين ، السوس الأدنى وهو طنجه وما والاها والسوس الأقصى في الجنوب[١٨٩] .

وهكذا نرى أن الولاة من الموالي الشاميين قد حققوا كالولاة الشاميين من العرب الكثير في مجال التنظيم الإداري وميدان نشر الإسلام ، كما يتبّين لنا بالاسناد إلى الروايات التي بين أيدينا على قلتها المكانة التي كانت للموالي في الشام ، ولم يكن الأمر يختلف في العراق عما هو في الشام بالرغم من أن عدداً من المستشرقين ومن مؤرخينا العرب المحدثين قد حاولوا البرهنة بالاعتماد على روايات وأخبار متفرقة وردت في العقد الفريد وبعض الأخبار القليلة المبعثرة في كتاب الأغاني أو في مصادر أخرى أن الأمويين كانوا يتعصبون للعرب وأن الموالي كانت طبقة مستغلة مضطهدة محتقرة[١٩٠] ، هذه الأخبار في الواقع تسجل حالات فردية لا يمكن أن نستخرج منها قاعدة تصف سياسة الدولة أو الرأي العام ، كما أن جل الأخبار الواردة كما يقول الدكتور الدوري هي أخبار تتصل بالبيئات القبلية وبمفاهيمها ، وهي بيئات لا تحترم الحرف اليدوية والفلاحة ، وتعتز بالفروسية وبفن القتال ، وطبيعي أن تكون نظرة هؤلاء إلى الموالي من فلاحين وصناع نظرة لاتتسم بالاحترام[١٩١] ، ثم اننا يجب أن لا ننسى كثرة الموالي في العراق ، فقد

---

(١٨٩) ابن عبد الحكم ــ فتوح مصر ، ص ٢١٧ ــ ٢١٨ .

(١٩٠) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، باب المتعصبين للعرب ص ٤١٢ ، ٤١٧ .

Von Kremer, Kulture Geschichtlische Streifzuge auf dem Gebeit des Islames, Calcutta, 1950, PP.78-82.

Brown, A Literary History of Persia, London, 1959, PP. 232-240.

فان فلوتن ، الشيعة والاسرائيليات ، لاسيما صفحات ٢١ وما بعدها ، و٣٥ وما بعدها عندما يتكلم عن أوضاع الموالي السياسية والاجتماعية .

جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، ج ٢ ، ص ٢١ ، ج ٤ ص ٥٨ ــ ٦١ فيليب حتي ، تاريخ العرب مطول ج ٢ ص ٢٩٩ ــ ٣٠٠ .

الخربطلي ، تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي في بحث الموالي خاصة ص ٢٥٥ . ٢٥٦ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسي ، ح ١ ص ١٣ ، ١٤ ، ص ١٤٧ وما بعدها ، ص ٢٦٢ ، بعنوان تعصب الأمويين للعرب .

(١٩١) د . عبد العزيز الدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي ص ٤٢ .

كان عددهم في الكوفة زمن معاوية ٢٠ ألفاً[١٩٢]، ولا شك أن هذه الاعداد قد ازدادت مما جعل العرب يشعرون في قرارة نفوسهم أن معظم الموالي لم يعتنقوا الإسلام لاقتناعهم بمبادئه القويمة، ولكن لمصالح شخصية ذاتية، ولذا لم يقتنع العرب بما نادى به الموالي أن إسلامهم قد ساواهم بالعرب وشعروا أن ازديادهم ومساواتهم بالعرب قد يشكل خطراً عليهم يتهددهم، هذا ما نفهمه من قول ابن مطيع عامل عبد الله بن الزبير على الكوفة «وإنما ذهب عزكم وسلطانكم وتغيّر دينكم حين يكثرون[١٩٣]».

أما ولاة بني أمية فقد اعتمدوا على الموالي في وقت مبكر، فهذا زياد بن أبيه يكتب إلى معاوية يوصيه باستخدامهم «لأنهم أنصر وأغفر وأشكر[١٩٤]»، كما استخدمهم في جباية الخراج، وكذلك فعل عبيد الله لأنه وجد الدهاقين «أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأهون على المطالبة[١٩٥]» وعين الحجاج صالح بن عبد الرحمن على ديوان الخراج بعد أن عرّبه[١٩٦]، كما ولّى سعيد بن جبير القضاء. فلما ضج أهل الكوفة وقالوا: لا يصلح القضاء إلاّ لعربي، ولي أبا بردة وأمره ألا يقطع أمراً دونه[١٩٧]، وجعله كاتباً ووزيراً له[١٩٨]، ولكن أهل الكوفة يقبلون بعد ذلك بعامر الشعبي قاضياً في خلافة عمر بن عبد العزيز، كما أن الحسن بن أبي الحسن البصري تولى قضاء البصرة في هذه الفترة، وكلاهما من الموالي[١٩٩]، وكانت منزلة الكتاب ورجال العلم من الموالي محترمة حتى في الأوساط القبلية، فقد عاش الحسن البصري عيشة الزعماء في البصرة، ولقي احترام الجميع وإجلال السلطة ورجالها، ويذكر ابن خلكان أنه عندما توفي الحسن البصري تبع الناس كلهم جنازته، واشتغلوا به فلم تقم صلاة العصر بالجامع،

---

(١٩٢) الدينوري، الأخبار الطوال ص ٢٨٨.
(١٩٣) الطبري، ج ٦ ص ٢٥.
(١٩٤) البلاذري، أنساب، ج ٤ قسم ١ ص ٢٣.
(١٩٥) المصدر السابق، ج ٤ قسم ٢ ص ١٠٩.
(١٩٦) البلاذري، فتوح ص ٢٩٨، وكان أبو صالح من سبي سجستان.
(١٩٧) البلاذري، أنساب، ج ٤ قسم ١ ص ٣٩.
(١٩٨) ابن قتيبة عيون الأخبار، ح ١ ص ٦٢، ابن خلكان، ج ١ ص ٢٠٥.
(١٩٩) الطبري، ج ٦ ص ٥٥٤.

ولا أعلم كما يقول «أنها تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذ لأنهم تبعوا كلهم الجنازة ولم يبق من يصلي العصر[٢٠٠]»، والأمثلة على الاحترام الذي كان يلاقيه الموالي من العلماء كثيرة، يكفي أن نقرأ كتب الرجالات حتى نتبين أن مكانة هؤلاء العلماء كانت واحدة سواء كان العالم الفقيه عربياً أو مولى.

وإذا كانت لدينا روايات تشير إلى أن أشراف الكوفة كانوا يرفضون اشراك موالي العتاقة في الديوان، فليس معنى هذا أن موالي العتاقة لم يكونوا يسجلون أو لم يكن يفرض لهم، فقد ورد في البلاذري أن عبيد الله بن زياد سبي خلقاً من أهل بخارى وأنه أسكنهم البصرة وفرض لهم[٢٠١]. كما أننا عندما نقرأ بأن الحجاج بعث إلى شبيب الخارجي، أبا الضريس مولى بني تميم في ألف من الموالي[٢٠٢]، وأن الحجاج عمل على أن يسقط ديوان الموالي لاشتراكهم في ثورة ابن الأشعث[٢٠٣]، فإننا لا نستطيع أن نبرهن بأن هؤلاء الموالي كلهم كانوا موالي حلف وأنه ليس بينهم موالي عتاقة، أما في المشرق فإننا إذا استثنينا الحكام المحليين الذين أسلموا واستمروا يمارسون سلطانهم تحت إشراف العمال العرب، والذين يمكن أن نفترض بأنهم كانوا يعتمدون على أبناء المنطقة في تسيير شؤون إدارتهم، فإن القادة العرب اعتمدوا على رجال من الموالي من أصحاب الرأي والمشورة مثل الفضل بن بسام مولى بني الليث، وعبد الله بن أبي عبد الله مولى بني سليم والبُختري بن مُجاهِد مولى بني شيبان[٢٠٤]، وكان البختري مستشار نصر بن سيار وكاتبه وصاحب أمره[٢٠٥]، وكان هارون بن السَيَاوش قائد خراسان[٢٠٦]، ونَيزك ابن صالح حاكم الشاش من الموالي[٢٠٧]، وفي ولاية قتيبة على خراسان وجد ما يزيد عن

---

(٢٠٠) ابن خلكان ج ١ ص ١٢٩.
(٢٠١) البلاذري، فتوح ص ٣٦٩، ٤٠١، الطبري، ج ٥ ص ٢٠٤.
(٢٠٢) ابن أبي الحديد، ج ٤ ص ٢٤٨.
(٢٠٣) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤ ص ٤١٦، ٤١٧.
(٢٠٤) الطبري، ج ٧ ص ٧٩.
(٢٠٥) المصدر السابق، ج ٧ ص ١٥٥/١٥٩/٣٨٤.
(٢٠٦) المصدر السابق ج ٧ ص ١٧٦/١٩٥.
(٢٠٧) الطبري، ج ٧، ص ١٧٧.

٣٠ ألف مقاتل عربي وسبعة آلاف من الموالي وعليهم حيان النبطي مولى بني شيبان[٢٠٨]، وليس هناك إشارة إلى أن هؤلاء المقاتلة من الموالي لم يكن لهم عطاء والا لذكر ذلك.

ثم ان الثورات التي قامت في العصر الأموي في الشرق هي ثورات عربية ولا نجد ثورة للموالي تستحق الذكر قامت تحت رايتهم أو بدعوتهم وإنما شارك فيها الموالي مع حلفائهم (مواليهم) أو مع رؤساء قادة الأحزاب، ولذلك فإننا عندما ندرس الروايات التاريخية يجب علينا أن ننتبه إلى اختلاطها في مطلع القرن الثاني للهجرة بسبب ظهور الفرق الدينية السياسية ونشوب الفتن بين المسلمين، كما يجب الانتباه كما يقول الدكتور فاروق عمر إلى مبالغات الشعوبية ومغالطاتها، وبالرغم من أننا لا ننكر وقوع حالات من الضغط الاقتصادي والتمييز الاجتماعي إلا أنها لم تكن في الحقيقة تدل على الوضع العام للموالي فقط لأنها أصابت العجم الضعفاء كما أصابت العرب الضعفاء كذلك[٢٠٩].

أهل الذمة

أهل الذمة هم الذين شملهم الإسلام من النصارى واليهود بعهده وأمانه ثم أولئك الذين طبق عليهم المسلمون فيما بعد قواعد ونظام أهل الذمة، وكان الرسول أول من طبق عملياً قواعد نظام أهل الذمة على النصارى واليهود في الحجاز ثم على مجوس البحرين، إذ فرض الجزية على النصارى واليهود ثم قررها أيضاً على المجوس قائلاً: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب[٢١٠]» وكانت الجزية مقابل المنعة وتعهد المسلمين بالمحافظة على أرواح السكان وأموالهم ودياناتهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية، ولم تكن كما يحاول البعض توضيحها نوعاً من العقوبة والجزاء، وكيف تكون كذلك وقد فرضت على الذكور البالغين من أهل الذمة ولم تفرض على النساء والأطفال والشيوخ، وكيف

(٢٠٨) المصدر السابق، ج ٦ ص ٥١١.
(٢٠٩) د. فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ/١٩٧٠ م ص ١٣٢.
(١١٠) البلاذري، فتوح ص ٢٦٦.

يمكن اعتبارها عقوبة وهذا خالد يطرح الجزية عن كل شيخ ضعيف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر؟ ولم يكتف بطرح الجزية عن هؤلاء بل جعل بيت مال المسلمين مسؤولاً عن إعالتهم وإعالة عائلاتهم ماأقاموا بدار الهجرة ودار الإسلام[٢١١].

وقد أدرك المسلمون منذ أن وطئت أقدامهم أرض الشام أن أمان الناس على أنفسهم وأموالهم هو أول ما يجب أن يشيع في نفوس السكان وأن يملأ عليهم آفاقهم حتى يعيشوا في أجواء مسالمة لا يفسدها الخوف والقلق، وحين تتوافر لهم هذه الاجواء فإنما تتوافر لهم الثقة بأصحاب الدعوة والإعجاب بما يؤمنون به، وقد يكون الإعجاب طريقاً للمشاركة والوحدة، ومن أجل هذا كان أول ما كان في كتب الصلح المختلفة أن يعطي القائد أو الخليفة للسكان الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم، جاء هذا في كتاب خالد لأهل دمشق[٢١٢]، وفي كتاب عمرو بن العاص لأهل غزة وَسَبَسطِية ونابلس[٢١٣]، وكتاب أبي عبيدة لأهل بصرى وحمص وبعلبك[٢١٤]، وكتاب شُرَحبيل بن حسنة لأهل طبرية[٢١٥]، وفي كتاب عمر بن الخطاب إلى أهل بيت المقدس، وبذلك استطاع هؤلاء السكان أن يتنفسوا في جو حر، فالأنفس والأموال في عرف المسلمين آمنة والأموال كلها مدنية تتصل بالأرض والمنازل ودينية تتصل بالكنائس والصلبان، والأنفس كلها ضعيفها وقويها، سقيمها وبريئها وسائر ملتها، فلهذه الأنفس جميعاً مكانها في المجتمع الجديد، لا يضطهد ضعيفها، ولا يهمل مريضها، ولا تنسى فيه حقوق ولا واجبات، وتدرج كتاب الصلح الذي كتبه عمر لأهل إيلياء تدرجاً رائعاً فهو لم يقتصر على منح الأمان لسكان البلاد وحدهم وإنما منح هذا الأمان للروم كذلك، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله

---

(٢١١) محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩م، ص ٣١٦، ٣١٧.

(٢١٢) البلاذري، فتوح، ص ١٢٨.

(٢١٣) المصدر السابق، ص ١٤٤.

(٢١٤) المصدر السابق ص ١٢٠، ١٣٧، ١٣٦.

(٢١٥) المصدر السابق، ص ١٢٣.

حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء، ووقف كتاب الصلح مثل هذا الموقف أيضاً ممن كان بإيلياء من أمم الأرض جميعاً لم يهمل شأنهم وأتاح لهم الأمان ما أتاح لغيرهم، وآمنهم أن يلحقوا بأرضهم أو يظلوا في مكانهم أو يلتحقوا بالروم «ومن كان بها من أهل الأرض... فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله[٢١٦]».

ووقف الإسلام من النصرانية في الشام موقف التحبب والود، فتفهم الإسلام وتقديسه للأديان السابقة وإيمانه بالأنبياء الذين تقدّموا محمدا (صلعم) واعتباره ذلك شرطاً في صحة العقيدة، كل ذلك كان كفيلاً، أن يكون مرحلة في التطور الديني، وتقبله واعتناقه والاندماج في أصحابه، ولما كان شعار الإسلام أن لا إكراه في الدين فان أهل الشام تمتعوا بحرية لم تتح في ذلك الوقت في العالم إلا في أضيق الحدود، وقد آمنهم عمر على عقائدهم وآمنهم كذلك على كل ما يتصل بهذه العقائد من مقدسات وصلبان وكنائس، ووقف بذمته بينها وبين «أن تُسكَن أو تهدّم أو يُنتَقص منها ولا من حيزها، ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم....» وأباح لهم أن يستمتعوا بما يعتقدون في مدى واسع من الحرية، فلا يتطلع إليهم أحد بإكراه ولا ينالهم من أحد إجبار «ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم[٢١٧]». وما أكثر الروايات التي تشير إلى اهتمام عمر بأهل الذمة وتخفيف الجزية على من لا يطيقها وإعانة من عجز على دفعها[٢١٨]. وأوصى عمر بن الخطاب عند وفاته بذمة رسول الله (صلعم) أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم[٢١٩]».

بالرغم من سياسة التسامح هذه تجاه أهل الذمة، فان عمر اضطر أن يتخذ موقفاً معيناً من عرب الشام والجزيرة، فعرب الشام قبل الفتح كانوا كلهم على الدين

---

(٢١٦) الطبري، ج ٣ ص ٦٠٩ من عهد عمر لأهل ايلياء.

(٢١٧) المصدر السابق، ج ٣ ص ٦٠٩، ٦١٠.

(٢١٨) تهذيب تاريخ دمشق، ج ١ ص ١٨٠، ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة ج ١ ص ٣٤.

(٢١٩) أبو يوسف، كتاب الخراج، القاهرة ١٣٤٦، المطبعة السلفية، ص١٦، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، البخاري، الجامع الصحيح ج ٢ ص ٢٩٣.

المسيحي، وكان للغساسنة مكانة رفيعة بينهم، ولذلك فإن الروايات المتعلقة بجَبلَة بن الأَيهَم يشير بعضها إلى إسلامه ثم ارتداده[٢٢٠] وبعضها الآخر على إقامته على دينه وإبائه من دفع الجزية أنفة[٢٢١] ولكنها كلها تشير إلى دخوله إلى أرض الروم مع أتباعه وقومه وأن هرقل أقطعه حيث شاء وأجرى عليه من النزل ما شاء وجعله من سمّاره، ويرى الدكتور جواد علي أن جَبلَة لم يدخل في الإسلام أبدا وأن مارُوِي عن إسلامه وعن زيارته ليثرب أو مكة ليس إلاّ من قصص القصاص وضعوه فيما بعد[٢٢٢].

ان موقف جبلة هذا دفع عمر بن الخطاب إلى أن يُضعف الصدقة[٢٢٣] على قبيلة تغلب عندما رفضت الدخول في الإسلام وأبت كذلك دفع الجزية، وهمّ أفرادها باللحاق بأرض الروم[٢٢٤]، ويبدو أن قبائل أخرى اقتدت بتغلب فرضيت بدفع الصدقة مضاعفة، مفضلين إياها على دفع الجزية لكي لا تكون في مصاف الأعلاج[٢٢٥].

وإذا كانت قبيلة تغلب قد نجحت في مسعاها فان مكانة العرب النصارى الاجتماعية بقيت دون مكانة العرب المسلمين، وبالرغم من أن الأخطل كان مقرّباً إلى عبد الملك وكان يعتبره أشعر العرب، وشاعر بني أمية إلا أنه كان يتمنى أن يسلم فيفرض له في ألفين أي في شرف العطاء[٢٢٦]، ويعير جرير الأخطل بأنه ممن ضربت عليه الذلة وباء بغضب من الله وادّى الجزية عن يد وهو صاغر[٢٢٧]، وعندما دخل على

---

(٢٢٠) الأغاني، ج ١٥ ص ١٦٢، ١٦٤، البلاذري، فتوح ص ١٤٢.

(٢٢١) البلاذري، فتوح، ص ١٤٢.

(٢٢٢) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج ٤ ص ٤٣٠.

(٢٢٣) البلاذري، فتوح، ص ١٨٦.

(٢٢٤) المصدر السابق، ص ١٨٦، الطبري، ج ٤ ص ٥٤.

(٢٢٥) البلاذري ص ١٨٦، قالوا: (أما إذا لم تكن جزية كجزية الاعلاج فانا نرضى ونحفظ ديننا) وعن الزهري، قال: ليس في مواشي أهل الكتاب صدقة إلا نصارى بني تغلب أو قال نصارى العرب الذين عامة أموالهم المواشي فان عليهم ضعف ما على المسلمين.

(٢٢٦) الأغاني، ج ٨ ص ٢٨٧، ٢٨٨.

(٢٢٧) المصدر السابق ج ٨ ص ٦٢.

عمر بن عبد العزيز قوم من تغلب وطلبوا منه أن يفرض لهم لأنهم عرب، رفض لأنهم نصارى[٢٢٨]، أي أنهم بمثابة أهل الذمة، ويجب أن تطبق على العرب النصارى الأنظمة التي تطبق على النصارى من غير العرب فهم في نظره سواء.

ارتبطت قضايا أهل الذمة في الأمور المدنية والجنائية والقضائية برؤسائهم الروحيين، إلا إذا كانت القضية تمس المسلمين[٢٢٩]، وقد حبس القس الأخطل في كنيسة دمشق لأنه يشتم الناس ويهجوهم، ولما سئل عن سبب هذا الخضوع والاستخذاء الذي يظهره للقس بالرغم من مهابة الناس له وإكرام الخليفة لشخصه جعل يقول: «انه الدين انه الدين[٢٣٠]».

وكان يسمح للذمي أن يوصي للكنيسة أو يوقف لها وقفاً من ماله[٢٣١]، كما أنه من كان له عهد أو ذمة فديته دية المسلم[٢٣٢]، إلا أن دية المعاهد كان يدخل نصفها بيت المال ويأخذ الخليفة النصف الآخر، فعندما قتل خالد بن المهاجر ومولاه نافع، إبن أثال، وكان طبيباً متقدماً من الأطباء المتميزين في دمشق غضب معاوية وأمر بضرب نافع مائة سوط والزم بني مخزوم دية ابن أثال اثني عشر ألف درهم، فأدخل بيت المال ستة آلاف درهم وأخذ ستة آلاف[٢٣٣]. فلم يزل ذلك يجري في دية المعاهد حتى ولي عمر بن عبد العزيز، فأبطل الذي يأخذه الخليفة لنفسه وأثبت الذي يدخل بيت المال[٢٣٤].

حافظ خلفاء بني أمية على كنائس المسيحيين وفقاً لما ورد في العهود المختلفة، وعندما هدمت الزلازل جانباً من بيعة الرُّها الكبرى أمر معاوية بترميمها واعادتها إلى

---

(٢٢٨) الطرطوشي، سراج الملوك، ص ١١٨.
(٢٢٩) العيون والحدائق، ص ٦٠.
(٢٣٠) الأغاني، ج ٨ ص ٣٠٩.
(٢٣١) ابن سعد، الطبقات، ج ٥ ص ٣٦٢.
(٢٣٢) يحيى بن آدم القرشي، الخراج، ص ٧٦، الفقرة ٢٣٩.
(٢٣٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٧٣، ١٧٤.
(٢٣٤) المصدر السابق، ص ١٧٤.

سابق عهدها[٢٣٥]، وأمسك معاوية عن زيادة كنيسة يوحنا في الجامع عندما أبى النصارى ذلك، وبذل لهم عبد الملك مالاً كثيراً لكي يتخلوا عنها فرفضوا[٢٣٦]، فلما كان عهد الوليد بن عبد الملك وكثر المسلمون وضاق بهم المسجد تأبوا عليه، بالرغم من أنه حاول أن يقطعهم قطائع كثيرة وأن يبذل لهم الأموال[٢٣٧]، وفي تاريخ دمشق لابن عساكر أنه عرض عليهم أن يبني لهم كنيسة حيث شاؤوا بدمشق وان شاؤوا دفع ثمنها لهم، وأضعف لهم الثمن، وعندما رفضوا هدد بأن يهدم كنيسة توما ويبني المسجد فيها لأنها لم تكن في العهد فقبلوا[٢٣٨]، وفي رواية ابن شداد أن الوليد أخذ كنيسة يوحنا وأعطاهم مقابل ذلك أربع كنائس[٢٣٩]، وعندما أبى الفعلة النصارى هدمها، لم يجبرهم على ذلك وإنما طلب من اليهود هدمها بعد أن بدأ هو ومن معه من وجوه أهل البلد ذلك[٢٤٠]، وكان في حلب نيف وسبعون هيكلاً للنصارى، بقيت كذلك إلى أن حاصر الفرنج حلب في ثماني عشرة وخمسمائة وملكها يومئذ الغازي بن أرتق صاحب ماردين، وقام بأمر البلد ومن فيه القاضي أبو الحسن محمود بن يحيى بن محمد، فعمد الفرنج إلى قبور المسلمين فنبشوها، فلما بلغ القاضي ذلك أخذ من كنائس النصارى التي كانت بحلب أربعاً، وجعل فيها محاريب، منها كنيسة القديسة هيلانة، فجعلها مسجداً، فاستمرت على ذلك إلى أن ملك الملك العادل نور الدين، فأحدث فيها ايواناً وبيوتاً وجعلها مدرسة لتدريس مذهب أبي حنيفة ووقف عليها وقفاً[٢٤١]، وأما الكنائس الباقية فقد حُوِّل قسم منها في العهد الأيوبي إلى مدارس لتعليم المذهب الحنفي[٢٤٢].

هذه الروايات تدل بوضوح أن المسلمين في كل العهود كانوا يفون للذمة

---

(٢٣٥) ترتون، أهل الذمة في الاسلام ص ٤١.
(٢٣٦) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ص ٥١.
(٢٣٧) المصدر السابق، ص ٥٤.
(٢٣٨) تهذيب تاريخ دمشق، ج ١ ص ٢٠١.
(٢٣٩) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٥٥.
(٢٤٠) تهذيب، ج ١ ص ٢٠١.
(٢٤١) ابن شداد، المصدر السابق ص ٤٥.
(٢٤٢) المصدر السابق، ص ٤٥.

بعهودهم، يرعون مصالحهم، يحافظون على كنائسهم، فلما جاء الفرنجة وعاملوا المسلمين تلك المعاملة البشعة، كان رد الفعل طبيعياً وهو تحويل هذه الكنائس إلى مساجد أو مدارس.

تشير الروايات إلى أن المسلمين كانوا على صلة مع أهل الذمة في حياتهم اليومية، ولم يعيشوا منعزلين عنهم، فقد سكن المسلمون مع النصارى في دور واحدة وعندما تولى سمرة بن فاتك أخو خريم بن فاتك الصحابي قسمة المساكن في دمشق بين أهلها بعد الفتح، كان يترك الرومي في العلو والمسلم في السفل لئلا يضر المسلم بالذمي[٢٤٣]، كما أنه كانت لهم أسواق واحدة شريطة أن لا يبيعوا الخمر والخنازير فيها[٢٤٤]، وكان المسلم يعود جاره النصراني إذا مرض، فقد عاد أبو الدرداء جاراً له نصرانياً[٢٤٥]، وفي بيت لحم وفي الحنية التي اتخذها عمر بن الخطاب مسجداً للمسلمين، جعل على النصارى إسراجها وعمارتها وتنظيفها[٢٤٦]، ولم يزل المسلمون يزورون بيت لحم ويقصدون إلى تلك الحنية ويصلون فيها وينقل خلفهم عن سلفهم أنها حنية عمر بن الخطاب، ولم يغيرها الفرنج عندما ملكوا البلاد[٢٤٧]. وكان الأخطل يدخل المسجد مرتدياً جبة خز متقلداً صليباً من ذهب وينشد قصائده[٢٤٨] وكانت بكر بن وائل إذا تشاجرت في شيء رضيت الأخطل، وكان يدخل المسجد فيقدمون

---

(٢٤٣) تهذيب تاريخ دمشق، ج ٦ ص ٦٤.

(٢٤٤) أبو يوسف الخراج، ص ١٥٢.

(٢٤٥) ابن قتيبة، عيون الأخبار، المجلد الثاني، ج ٣ ص ٤٤. ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ١ ص ٢٠.

(٢٤٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ١ ص ٥٢٢، وفي رواية ياقوت، أن عمر بن الخطاب عندما ورد إلى بيت المقدس، أتاه راهب من بيت لحم فقال له: معي منك أمان على بيت لحم، فقال له عمر، ما أعلم ذلك، فأظهره وعرفه عمر، فقال له: الامان صحيح، ولكن لا بد في كل موضع للنصارى أن يجعل فيه مسجد، فقال الراهب، ان في بيت لحم حنية مبنية على قبلتكم، فاجعلها مسجداً للمسلمين ولا تهدم الكنيسة، فعفا له عن الكنيسة وصلّى إلى تلك الحنية واتخذها مسجداً.

(٢٤٧) المصدر السابق، ج ١ ص ٥٢٢.

(٢٤٨) الأغاني، ج ٨ ص ٣٠٢.

إليه[٢٤٩] كما أن أولاد المسلمين كانوا يتلقون الفلسفة على أيدي رجال الدين من النصارى، فقد أثر عن يعقوب الرهاوي (٦٤٠ ــ ٧٠٨م/٢٠ ــ ٩٠ هـ) أنه أفتى لرجال الدين النصارى بأنه يحل لهم أن يعلموا أولاد المسلمين التعليم العالي[٢٥٠]، ونتيجة للاحتكاك بين المسلمين والنصارى أخذوا يتحادثون ويتحاجون في العقائد، يدلنا على ذلك أن أحد المؤلفين في هذا العصر واسمه يحيى الدمشقي ألف رسالة على هذا النمط «إذا قال لك العربي كذا فأجبه كذا[٢٥١]».

واشتهرت الأديار[٢٥٢] في الجاهلية بإيواء المجتاز بها وضيافة اللاجيء والإحسان إلى كل طارق محتاج، ولم يكن فيها وقتئذ دور خاصة بالضيافة، بل كان نزول الأضياف فيها في بعض الحجر، ثم جاء الإسلام، فأوجب على النصارى في جملة شروطهم أن لا يمنعوا كنائسهم من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار[٢٥٣]، وفي رواية أبي يوسف أن أبا عبيدة بن الجرّاح لما صالح أهل الشام اشترط عليهم أن يضيفوا من مرّ بهم من المسلمين ثلاثة أيام[٢٥٤]، فلم يكن من ثم بد من وجود مواضع في الديارات لمبيت الزوار وعابري السبيل، ثم كثر الأضياف والمتنزهون في الأديرة، لا سيما من الأمراء وحاشيتهم، فكان لا بد من بناء دور وحجر لهم خاصة إلى جانب الأديار ينزل فيها كل من يغشاها من الناس المسافرين وتقام لهم فيها الضيافات على أقدار كل منهم، ومن

---

(٢٤٩) المصدر السابق، ج ٨ ص ٣٠٣.

(٢٥٠) أحمد أمين، فجر الإسلام، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٩٦٩، ص ١٣١، ١٣٢.

(٢٥١) المصدر السابق، ص ١٣٤.

(٢٥٢) يشترط في كل دير صغير أم كبير أن يكون فيه كنيسة كما يشترط فيه أن يحتوي على صوامع تستوعب من فيه من رهبان بالإضافة إلى المخازن وبيوت الطعام وغيرها من المرافق، والصوامع هي قلالي الرهبان، فكانت في بعض الأديرة تعد بالعشرات وفي بعضها بالمئات وجاوزت في بعضها الألف عداً، إذ لا بد للراهب من صومعة يقيم فيها وحده ولا يباح لزائر أن يقيم في صوامع الرهبان ذاتها، ولذلك فان الديارات الجليلة الشأن لا تخلو من دور ضيافة وبيوت ينزلها زوار الدير (الشابشتي، الديارات، تحقيق كوركيس عواد، بغداد ١٩٥١م ص ٣١).

(٢٥٣) حبيب الزيات، الديارات النصرانية، ص ٥٨. عن أبي يعلي محمد بن الحسين بن محمد الفراء من مخطوطات الخزانة الشرقية.

(٢٥٤) أبو يوسف، الخراج ص ١٦٥.

أعظم هذه الأديرة في الشام، دير مُرَّان ظاهر دمشق، كان يزيد بن معاوية قد اتخذه منتزها[٢٥٥]، ونزله أيضاً جماعة من الخلفاء الأمويين والعباسيين[٢٥٦]، ودير البُخت في دمشق على فرسخين منها وهو دير كبير حسن وكان يسمى دير ميخائيل فسمي بهذا الاسم لبُخت كانت لعبد الملك بن مروان مقيمة هناك فعرف بها[٢٥٧]، ودير صليبا مقابل باب الفراديس، ويعرف بدير خالد بن الوليد لأن نزوله كان به عندما حاصر دمشق، وكان الوليد بن يزيد كثير المقام به يخرج إليه ومعه حرمه استحساناً[٢٥٨] ودير يونا (يوحنا) بجانب غوطة دمشق[٢٥٩]، أقام الوليد بن يزيد فيه أياما، ودير الرصافة، رصافة هشام بن عبد الملك، وهذه الديارات كانت كلها تقع في مناطق جميلة بين رياض مشرقة وأنهار متدفقة وأشجار كثيرة[٢٦٠].

موقف الدولة من اليعاقبة والروم الملكيين

يجمع كل مؤرخي النصرانية على أن لقب الملكيين نشأ في القرن الخامس الميلادي أطلقه اليعاقبة على من خالفهم من نصارى الشرق ووافقوا امبراطور بيزنطة على قبول مقررات المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١ م[٢٦١] ولذلك كان الخلقيدوني مرادفاً للملكي[٢٦٢]، وكان انتساب الملكيين إلى الامبراطور البيزنطي على أثر مجمع خلقيدونية سبباً لاتهامهم بالميل إلى الروم والتجسس لهم ومطالعتهم بأخبار الفرس، ثم بعد بأخبار

---

(٢٥٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٢ ص ٥١٩.

(٢٥٦) شهاب الدين العمري، مسالك الأبصار، مطبعة الدار، مصر ج ١ ص ٣٥٥.

(٢٥٧) الشابشتي، الديارات، ص ١٣٧.

(٢٥٨) ياقوت الحموي، ج ٢ ص ٥١٩، العمري، مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٤٩.

(٢٥٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢ ص ٥٠٢.

(٢٦٠) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ص ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٢.

(٢٦١) Donner, The Early Islamic Conquests, P. 94.

L. Duchesne, Autonomie Ecclesiastiqie, Eglises Separee, 1896, P. 52.

(٢٦٢) كان الخلقيدونيون عند السريان ينقسمون إلى قسمين، خلقيدونيين مكسيمية، نسبة إلى القديس مكسيموس، الذي اشتهر بالنضال عن المشيئتين، وخلقيدونيين ماروية أتباع بيت مارون أوذير مارون.

Chronique de Michel Le Syrien, Edition et traduction de y.B. Chabot, t. II PP. 492-496.

المسلمين ، ولذلك كانوا يرغمون أحياناً على العدول عن مذهبهم الخلقيدوني ليدفعوا عن أنفسهم كل ظنة بالتحزب للبيزنطيين أعداء الفرس ثم العرب ، وقد ضيق الفرس على من كان في بلادهم من الملكيين ، قال ابن العميد : في السنة الثالثة للهجرة ضيق كسرى على أهل الرها وطلب منهم أن ينتقلوا عن مذهب الملكية إلى اليعقوبية لأن طبيبه يونان أوهمه أنهم ماداموا على مذهب الملكية ، فقد يميلون إلى الروم ويكاتبوهم ، فعرض عليهم القتل أو الانتقال إلى المذهب اليعقوبي فانتقلوا بأجمعهم[٢٦٣] » . كما أمر كسرى بطرد الأساقفة الخلقيدونيين أي الملكيين من كل بلاد ما بين النهرين وسورية وزال ذكرهم على حد قول ميخائيل من حد الفرات إلى المشرق ، ولم يتمكنوا من العودة إلى مذهبهم وكنائسهم إلا بعد انتصار هرقل على الفرس[٢٦٤] .

واتهام الملكيين بالتحزب للبيزنطيين هو الذي حمل الخلفاء الأمويين على منع قيام بطاركة لهم في كراسيهم الثلاثة وجرّأت اليعاقبة على التغلب عليهم ، فقد بقيَ الملكيون أكثر من ثمانين سنة بغير بطرك في مصر ، من عهد عمر بن الخطاب إلى خلافة هشام ابن عبد الملك فغلب اليعاقبة في هذه المدة على جميع الكنائس في مصر وأقاموا منهم أساقفة[٢٦٥] وكان البطريرك اسطفانوس هو أول بطريرك ملكي دخل أنطاكية بعد شغورها مدة تنيف على أربعين سنة ، وقد فرض عليهم اسطفان لأنه كان عزيزاً على هشام بن عبد الملك[٢٦٦] .

ويظهر أن بطاركة بيت المقدس سبقوا بطاركة الاسكندرية وأنطاكية في العودة إلى كراسيهم واستقر أولهم بعد صفرونيوس في زمن الوليد بن عبد الملك وهو البطريرك يوحنا الخامس (٧٠٦ ــ ٧٣٧م /٨٨ ــ ١٢٠ هـ) .

---

(٢٦٣) جرجس بن العميد ، تاريخ ابن العميد ، طبعة ليدن ص ١٢ .

(٢٦٤) Chronique de Michel Le Syrien, t II PP. 377, 378.

(٢٦٥) المقريزي ، الخطط ج ٣ ص ٥٢٧ .

٢٦٦) Theophanes, Bilderstreit und Arabersturm In Byzanz Das 8 Jahr hundert 717-813, aus der Welt Chronik des Theophanes. Ubersetst, eingeleited und erklart Von Leopold Byeyer, Wien, 1957, P. 55.

ويرى البعض أن أوجه ما يعلل به هذا الرضى من الأمويين بعد الامتناع الطويل هو النزاع الذي حدث بين الملكيين من روم بيزنطيين وروم بلديين عندما بدأت الحركة المعادية للايقونات Iconclasm في الامبراطورية البيزنطية زمن الامبراطور ليون الثالث (٧١٧ــ ٧٤١م/٩٩ــ ١٢٤ هـ) فضعفت ريبة هشام بن عبد الملك في رعيته من الروم وسمح لهم بالرجوع إلى حقوقهم القديمة بإقامة بطاركة لهم من الملكيين البلديين.

وبالرغم من أن المؤرخ تيوفانس Theophanes يذكر أن أول قرار ضد عبادة الايقونات لم يصدر في القسطنطينية بل في دمشق عاصمة الخلافة في خلافة يزيد بن عبد الملك[٢٦٧]، (١٠١ ــ ١٠٥ هـ)، فإنه يشير إلى أن الخلفاء المسلمين كانوا أحلم وأنصف من ليون الإيسوري وابنه قسطنطين الخامس الذي عمد إلى اضطهاد الرهبان وقتلهم وتعذيبهم[٢٦٨].

ومن يراجع تواريخ فرق اليعقوبية والنسطورية يقف فيها على عدة شهادات ناطقة بتحزبهم للإسلام وانتصارهم على النصرانية البيزنطية[٢٦٩]، ونظرا لدعم النساطرة واليعاقبة للعرب كان من البديهي أن ينظر العرب إليهم بعين غير التي كانوا ينظرون بها إلى الملكيين وهم أشياع أعدائهم بالأمس، ولا يزال لقبهم ناطقاً بالانتماء إليهم، فكانوا من ثم يعتقدون فيهم قلة المناصحة، ولم يكن العرب في ذلك مخطئين، فان الجَراجِمة في جبل اللُّكام (وهم الذين عرفوا فيما بعد باسم الموارنة) كانوا تابعين لبطريرك أنطاكية قبل الفتح، ولم يقاتل أهل الجرجومة حبيب بن مسلمة الفِهري، بل بدروا إلى طلب الأمان والصلح، فصالحوه على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللُّكام، وأن لا يؤخذوا بالجزية وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين إذا حضروا معهم في

---

(٢٦٧) في سنة ٧٢٣م على حد زعم تيوفانس أصدر الأموي يزيد بن عبد الملك أمراً يقضي برفع الايقونات من جميع الكنائس الموجودة في أراضي امبراطوريته.

(٢٦٨) Theophanes op. Cit. PP. 46, 70, 71

(٢٦٩) المقريزي الخطط ج ٣ ص ٥٣٦، ٥٣٧

Chronique de Michel Le Syrien t. II. P. 433.

مغازيهم[٢٧٠]، ولكن الجَراجِمة كانوا يستقيمون للولاة مرة ويعرجون أخرى، فيكاتبون الروم ويمالئونهم، فلما كانت أيام ابن الزبير وموت مروان بن الحكم وخلافة عبد الملك ابن مروان واستعداده للشخوص إلى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير، توجهت خيل للروم إلى جبل اللُّكام واستطاع قائد للجيش الرومي أن يتوجه إلى لبنان، وانضم إليه جماعة كبيرة من الجَراجِمة مما اضطر عبد الملك إلى مصالحتهم على ألف دينار كل جمعه ويصالح طاغية الروم على مال يؤديه إليه كذلك، واقتدى بصلحه بمعاوية حيث شغل بحرب أهل العراق، ولكنه ما أن قضى على فتنة عمرو بن سعيد بن العاص وعلى مصعب بن الزبير حتى أرسل سحيم بن المهاجر الذي استطاع بالخديعة أن يقضي على القائد الرومي ومن معه من الروم ثم نادى في سائر من ضوى إليه بالأمان فتفرق الجَراجِمة بقرى حمص ودمشق ورجع أكثرهم إلى مدينتهم باللُّكام، وعندما اجتمع إلى الجراجمة سنة ٨٩ هـ قوم من الروم من قبل الاسكندرونة ورودس وجه الوليد بن عبد الملك إليهم أخاه مسلمة بن عبد الملك فافتتحها وقرر تخريب مدينتهم حتى لايعودوا إلى ممالكة الروم، ولكنه منحهم مع ذلك ميزات متعددة، إذ نجده يترك لهم حق اختيار المكان الذي يودون النزول فيه بالشام، ويجري على كل امرىء منهم ثمانية دنانير وعلى عيلاتهم القوت من القمح والزيت وعلى ألا يكرهوا أحداً من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية[٢٧١].

وبالرغم من ذلك الشك الذي كان يُساور نفوسَ الخلفاء تجاه الملكيين، فان اليعاقبة في الشام لم يستطيعوا التفوق على الملكيين كثيراً وغاية ما امتازوا به عليهم اطلاق الخلفاء المروانيين لهم حق اختيار بطاركتهم من رجال كنيستهم واختصاص هؤلاء البطاركة البلديين بالكرامة والحظوة، في حين كان الملكيون محرومين من هذا الحق حذراً من قيام الغرباء بينهم، ولما عقد اليعاقبة البطركية لأسقف أفاميه مار الياس، وفد على الوليد بن عبد الملك فأحسن لقاءه وزاد في تشريفه بينما أخذ كنيسة الملكيين الكبرى بدمشق ليحولها جامعاً[٢٧٢]. وفي السنة الأولى من خلافة يزيد بن عبد الملك أذن

---

(٢٧٠) البلاذري، فتوح ص ١٦٤.

(٢٧١) البلاذري، فتوح، ص ١٦٥.

(٢٧٢) Chronique de Michel Le Syrien, t. II P. 480.

للبطريرك مار الياس، فدخل أنطاكية بموكب حافل من الرهبان والاتباع، وذلك بعد مضي مائتين وثلاث سنوات من خروج ساويرس رأس شيعتهم منها، قال ديونيسيوس تل محري فيما نقله عن البطريرك ميخائيل الكبير: «ومنذ ذلك الحين لم يستطع أحد من بطاركتنا نحن الأرثوذكس أن يطأ أرض أنطاكية قبل مار الياس دخلها في هذا الزمن من دولة العرب[٢٧٣]».

وقبل أن أنهي البحث عن أهل الذمة لابد من أن أتطرق إلى قضية ملابس أهل الذمة في صدر الإسلام لا سيما وأن الفقهاء يطلقون اسم الشروط العمرية، حين يتعرضون لهذا الموضوع ليشيروا إلى أنها من وضع عمر بن الخطاب، وأول من نسب هذه الأوامر إلى الخليفة عمر، أبو يوسف[٢٧٤] (المتوفى سنة ١٨٢ هـ) وابن عبد الحكم (المتوفى سنة ٢٥٧ هـ) في كتابه فتوح مصر[٢٧٥]. أما العهود الواردة في البلاذري والطبري وابن الأعثم فانها خالية من الإشارة إلى الملابس، مما يدفع الإنسان إلى الشك في حقيقة إصدار عمر لهذه الأوامر، لأن الغرض من القواعد المتعلقة بالملابس هو سهولة التمييز بين النصارى والمسلمين، وهذا أمر لا يرقى إليه الشك عند كل من أبي يوسف وابن عبد الحكم «هكذا كان عمر بن الخطاب أمر عماله أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزي، حتى يعرف زيهم من زي المسلمين[٢٧٦]»، على أنه يجب أن نلاحظ أنه لم يكن ثمة ضرورة وقت الفتح لالزام النصارى لبس نوع من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون، إذ كان لكل من الفريقين وقتذاك ثيابه الخاصة، فمثلاً كان النصارى قبل الإسلام يتزينون بالزنانير المحلاة بالذهب والفضة ويتباهون بلبسها، وكان النعمان بن المنذر يركب في كل أحد إلى دير اللّج[٢٧٧]، وفي كل عيد معه أهل بيته من آل المنذر ومن ينادمه من أهل دينه عليهم حلل الديباج المذهب وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب

---

(٢٧٣) Ibid P. 490.

(٢٧٤) أبو يوسف، الخراج، ص ١٥١، ١٥٢.

(٢٧٥) ابن عبد الحكم، فتوح، مصر ص ١٥١.

(٢٧٦) أبو يوسف، المصدر السابق، ص ١٥١، ١٥٢.

(٢٧٧) دير اللّج بالحيرة بناه النعمان بن المنذر أبو قابوس في أيام مملكته، ولم يكن في ديارات الحيرة أحسن بناء ولا أنزه موضعاً (ياقوت، معجم البلدان ج ٢ ص ٥٣).

وفي أوساطهم الزنانير المحلاة بالذهب المفصصة بالجوهر[٢٧٨]، ونقل عن مار أمّه[٢٧٩] أو أبا الجاثليق أنه كان أول من أمر الأسكلانيين بشد الزنانير في أوساطهم ليتميزوا عن غيرهم[٢٨٠]، فالزنار إذا كان معروفاً عند النصارى قبل الهجرة والخليفة عمر بن الخطاب بريء من تهمة وضعه عليهم قصد إذلالهم، ولكن يبدو أن الحاجة استلزمت هذه الشروط فيما بعد حينما أخذت الشعوب الخاضعة تعمل على الاقتداء بالعرب في ملبسهم والتشبه بهم في ثيابهم، نستشعر ذلك مثلاً في اتفاقية سنة ٨٩ هـ، بين المسلمين والجراجمة حيث تضمنت السماح للجراجمة بأن يلبسوا لباس المسلمين[٢٨١].

وإذا راجعنا ماوقع لنا من أخبار الأمويين والأشعار التي قيلت في عهدهم، لانجد فيها ذكراً للزنار في أوصاف النصارى، إلا فيما زعموه من أوامر عمر بن عبد العزيز وكتبه إلى عماله في التضييق عليهم، وأكثر ما يجيء التغزل بالزنار في خصور الغلمان في الأشعار العباسية، وهذا ما يجعل المرء يعتقد أن شرط الزنار حدث في أوائل عهد العباسيين، وفي الشروط العمرية أن الزنار كان متوجباً على أهل الذمة من النصارى واليهود والمجوس، ولكن لم تشتهر به حقيقة إلاّ النصارى وحدهم وقل جداً ذكر اليهود في الأوامر السلطانية بلبس الزنار[٢٨٢]، ومن الأبيات القليلة التي صرح فيها بلبسهم إياه قول أبي نواس وقد نزل في حانة خمار يهودي:

وفتيـــان صدق قد صرفت مطيّهـــم
إلى بيت خمّـــار نزلنـــا به ظهـــرا
فلما حكى الزنار أن ليس مسلما
ظننـــا به خيراً فظّـــن بنـــا شراً

---

(٢٧٨) الأغاني، ج ٢، ص ٣٩.

(٢٧٩) Book of Governors,, The Historia Monastica of Thomas, Bishop of Marga, A.D. 480. Tr. by E.A. Wallis Budge, London 1893 B. I ch. XXIII P.79.

(٢٨٠) حبيب الزيات، سمات النصارى واليهود في الإسلام ص ٢٠١، عن تاريخ جثالقة النساطرة مخطوط رقم ٦٦٥٣، باريس ص ١٨٠.

(٢٨١) البلاذري، فتوح ص ١٦٥، ١٦٦.

(٢٨٢) حبيب الزيات، المصدر السابق ص ٢٠٢، ٢٠٣.

فقلنا على ديـــن المسيـــح بن مريم
فأعرض مزورّا وقـــال لنـــا هجـــراً
ولكـــــن يهودي يحبك ظاهـــــراً
ويضمـر في المكنـون لك الغـدرا[٢٨٣]

وكان اليهود أكثر ما يعرفون بالغيار أي في اللون الأصفر في عمائمهم، بينما كان النصارى يمتازون بالزنار في أوساطهم.

ويبدو أن عمر بن عبد العزيز هو أول من أصدر أحكاماً بشأن ملابس أهل الذمة؛ وأقدم النصوص التي تشير إلى ذلك، النص الذي أورده كذلك أبو يوسف ثم ابن عبد الحكم في كتابه سيرة عمر بن عبد العزيز ونص ابن الحكم أكثر اختصاراً، إذ يذكر أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الآفاق: «أن لا يمشين نصراني إلا مفروق الناصية ولا يلبس قباء ولا يمشي إلا بزنار من جلد ولا يلبس طيلساناً ولا سراويل ذات خدمة ولا نعلاً لها عذبة[٢٨٤]». أما الرواية التي ينقلها أبو يوسف عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامل له: وامنع قبلك، فلا يلبس نصراني قباء ولا ثوب خز ولا عصب[٢٨٥]، وقد ذكر لي أن كثيراً من قبلك من النصارى قد راجعوا لبس العمائم، وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الجمام والوفر وتركوا التقصيص[٢٨٦]».

وبالرغم من أن ابن عبد ربه يشير كذلك إلى أن الخليفة حرّم على جميع الذميين لبس العمائم أو التشبه بالمسلمين في ثيابهم[٢٨٧]، وأن ابن عساكر يكرر رواية ابن عبد الحكم، فانه مما يسترعي الانتباه، أن ابن سعد في طبقاته، وهو كاتب الواقدي المتوفى

(٢٨٣) المصدر السابق ص ٢٠٣؛ ديوان أبي نواس، خزانة الفاتيكان رقم ٤٥٦ ص ١١٤.
(٢٨٤) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص ١٣٦.
(٢٨٥) عصب، برد يمانية يعصب غزلها أي يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج فيأتي موشياً لبقاء ماعصب منه أبيض ولم يأخذه الصبغ.
(٢٨٦) أبو يوسف، الخراج، ص ١٥٢، ١٥٣.
(٢٨٧) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٤ ص ٤٣٦.

سنة ٢٠٧ هـ لا يشير إلى هذه الشروط مع أنه لم يترك أمراً من الأمور المتعلقة بأحكام عمر بن عبد العزيز إلا وذكره، ثم أن أبا هلال في كتابه الأوائل يذكر أن أول من أمر بتغيير زي أهل الذمة هو المتوكل[٢٨٨]، وإذا كانت النصوص السابقة تشير إلى ملابس المسلمين التي يمنع النصارى من ارتدائها فان أبا هلال يتعرض إلى أزياء أهل الذمة وألوانها، ثم ان ابن قيم الجوزية يذكر فقط أن عمر بن عبد العزيز أمر أن تهدم بيع النصارى المستجدة[٢٨٩]، بينما يؤكد على التدابير التي اتخذها المتوكل بحق ملابس أهل الذمة[٢٩٠]، وهو في هذا يتفق مع ما ورد في الطبري عند ذكر كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الرحمن بن نعيم: «لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه، ولا تحدثن كنيسة ولا بيت نار[٢٩١] وإنما كان من قرارات عمر عدم الاستعانة بأهل الذمة «فان المسلمين استعانوا بهم في أول الأمر لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير فكان لهم في ذلك مدة قضاها الله»، ولذلك طلب من عماله عزل الكتاب والعمال من أهل الذمة واستبدالهم برجال مسلمين[٢٩٢]، ويؤكد هذا ما ذكره ساويرس عن عمر بن عبد العزيز بأنه أعفى الأساقفة والكنائس من الخراج، وعمّر المدن التي خرّبت وأبطل الجبايات، فعاش القبط في أمن وهدوء، ولكنه لم يلبث أن أرسل كتاباً يأمر فيه الأقباط بالتخلي عن أعمالهم في الدولة ما داموا على دينهم «أما من يريد الاحتفاظ بعمله فليكن على دين محمد[٢٩٣]». ويرد في كتاب أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية أن معاوية كتب إلى عمر بن الخطاب: أما بعد يا أمير المؤمنين، فان في عملي كاتباً نصرانياً لا يتم أمر الخراج إلا به فكرهت أن أقلده دون أمرك، فكتب إليه، «عافانا الله وإياك، قرأت كتابك في أمر النصراني، أما بعد فان النصراني قد مات والسلام[٢٩٤]» أي ماذا نعمل إذا مات؟ ألا تجدون حينئذ من يقوم مقامه؟ ثم يضيف ابن الجوزي بأن الخلفاء الذين

---

(٢٨٨) أبو هلال العسكري، الأوائل، ج ١ ص ٣٩٥.
(٢٨٩) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ج ١ ص ٢١٣.
(٢٩٠) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٢٢.
(٢٩١) الطبري، ج ٦ ص ٥٧٢.
(٢٩٢) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٣٦.
(٢٩٣) ساويرس، سير الآباء البطاركة، باريس ١٩١٠م ج ٥ ص ٧١، ٧٢.

لهم ثناء حسن في الأمة درجوا على ما طبقه الرسول وعمر بن الخطاب في عدم استخدام أهل الذمة في أعمال المسلمين، فيذكر أسماء بعض الخلفاء كعمر بن عبد العزيز والمنصور والرشيد والمهدي والمأمون[٢٩٥]، وفي هذا إشارة إلى أن خلفاء بني أمية كافة باستثناء عمر بن عبد العزيز استعانوا بأهل الذمة، كما أنه يورد روايات مختلفة تظهر منع عمر بن الخطاب عماله من استخدام أهل الذمة ويطلب من المسلمين أن يتعلموا الكتابة فإنما هي حلية الرجال[٢٩٦]، وهذه الأقوال على ما أعتقد لا تنطبق على أحوال زمان الخليفة عمر بن الخطاب، وما عرف عنه من اهتمام بأمور رعيته، وكل عارف بأخبار عمر ومعاوية يعلم أن الدواوين وقتئذ كانت في الشام بالرومية، وأن كل كتابات الخراج والجباية لم تكن تدون إلا بالرومية، فلم يكن بد للعرب من كتاب بلديين يجيدون فهم الرومية، ولذلك لم يكن عند معاوية كاتب نصراني واحد فقط بل مئات وآلاف من رجال القلم والملاحة والصناعة وكلهم من المسيحيين، فلم يكن ثم من سبيل للاستغناء عن النصارى سكان البلاد، وقد شهد عمر بن عبد العزيز بحاجة المسلمين إلى النصارى كما رأينا، ولذلك فان ما يذكره إبن الجوزية عن استئذان معاوية عمر في استخدام كاتب نصراني واحد وإجابته بأن النصراني قد مات رواية لا يقبلها العقل والمنطق، ولكن قد تقبل من الخليفة الناصر لدين الله العباسي الذي كتب عن ابن زطينا النصراني كاتب ديوان الإنشاء ببغداد حين أبى أن يفارق دينه النصراني، «مات ابن زطينا والسلام».

تشير المصادر العربية إلى استخدام معاوية لسرجون بن منصور الرومي على الديوان وأمره كله[٢٩٧]، واستخدامه ابن أثال النصراني على خراج حمص[٢٩٨] واستمر

---

(٢٩٤) ابن قيم الجوزيه، أحكام أهل الذمة ج ١ ص ٢١٠.

(٢٩٥) المصدر السابق ج ١ ص ٢١٢.

(٢٩٦) المصدر السابق ج ١ ص ٢١١.

(٢٩٧) خليفة ابن خياط ج ١ ص ٢٧٦؛ الطبري ج ٥ ص ٣٣٠؛ الجهشياري، الوزراء والكتاب ص ٢٤؛ سيرة يوحنا الدمشقي، ص ١٢.

(٢٩٨) اليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ٢٢٣؛ الجهشياري، ص ٢٤.

سرجون على ديوان الخراج حتى خلافة عبد الملك. وكان لسرجون مكانة كبيرة لدى الخلفاء، ويقال أن الكنيسة التي كانت خارج باب الفراديس كانت محدثة بنيت بعد الفتح لسرجون[٢٩٩]. وعندما نقل سليمان بن سعد الخُشَني مولى بني أمية الديوان من الرومية إلى العربية كان أول مسلم ولي دواوين الخراج، وكانت النصارى تلي الدواوين قبله[٣٠٠]، وبالرغم من أن اللغة العربية أصبحت لغة الدواوين في عهد عبد الملك فان هذا لا يعني أن الأمويين لم يستخدموا الكتاب النصارى، فقد أورد ابن العبري في كتابه «أن عبد الملك منع الكتاب النصارى من أن يكتبوا الدفاتر بالرومية ولكن بالعربية[٣٠١]»، وهذا دليل على أن الذين يجيدون العربية قد بقوا في وظائفهم، واستمر استخدام الأمراء والخلفاء للنصارى، فقد قلّد سليمان بن عبد الملك أمر النفقة على بناء الرملة ومسجدها الجامع لكاتب له نصراني من أهل اللد يقال له البطريق بن النكا[٣٠٢]، وكان من كتاب هشام بن عبد الملك تاذري بن أسطين النصراني، الذي قلّده ديوان حمص[٣٠٣]. ولا شك أن نسبة النصارى في الوظائف قلت لدخول قسم من سكان البلاد في الإسلام ونتيجة للتدابير التي اتخذها عمر بن عبد العزيز في خلافته، إلا أن تسامح خلفاء بني أمية وأمرائها بشكل عام مع أهل الذمة في الشام جعل انتشار الإسلام بطيئاً، وليس أدل على ذلك كثرة الاسقفيات والكنائس التي بقيت منتشرة في الشام[٣٠٤]، والإشارات إلى كثرة المسيحيين واليهود في المناطق المختلفة في أوائل العصر

---

(٢٩٩) تهذيب تاريخ دمشق، ج ٦ ص ٧٣.

(٣٠٠) الجهشياري، ص ٤٠؛ تهذيب، ج ٦ ص ٢٧٨.

(٣٠١) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص ١٩٤.

(٣٠٢) البلاذري، فتوح ص ١٤٩؛ الجهشياري ص ٤٨.

(٣٠٣) الجهشياري ص ٥٩.

(٣٠٤) يوسف الدبس، تاريخ سورية، ج ٣ المجلد الخامس، ص ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٥، وهو يشير إلى وجود اسقفيات في حماه وبيروت وصيدا ودمشق وبيرود ودارايا وأخرى بالقرب من غزة والى الاسقفيات فى فلسطين.

العباسي[٣٠٥]، ومن مقارنة ما ذكره أركولف Arculf في زيارته للمناطق المقدسة في فلسطين وقد زارها سنة ٦٧٠ م/٥٠ وزيارة وليبالد Willibald[٣٠٦]، لهذه المناطق سنة ٧٥٤ م/١٣٧ هـ نرى بوضوح أن المسيحية كانت لا تزال واسعة الانتشار ولا سيما في المنطقة الجنوبية من الشام، كذلك بقي لبنان نصراني المذهب سرياني اللغة إلى ما بعد الفتح بأجيال طويلة[٣٠٧]، ويشير المقدسي (ت ٣٨٠ هـ) إلى كثرة أهل الذمة في عصره في منطقة الشام[٣٠٨]، ويعلق قائلاً: أقل ما ترى في الشام فقيها له بدعة، أو مسلماً له كتابة، إلا بطبرية، فانها ما زالت تخرج الكتاب، وإنما الكتبة به وبمصر نصارى. وأكثر الجهابذة والصباغين والدباغين يهود في هذا الاقليم، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى[٣٠٩]، كما يشير إلى أن بيت المقدس قليلة العلماء كثيرة النصارى قد غلب عليها النصارى واليهود وخلا المسجد من الجماعات والمجالس[٣١٠].

وفي الحديث عن أهل الذمة في الشام تستوقفنا هذه الحقيقة البالغة الأهمية في تكوين المجتمع الإسلامي، هذه الحقيقة هي أن إيمان المسلمين بالسابقين من الأنبياء وبشرعية وجود أصحاب الديانات الأخرى واحترام الإسلام للإنسان كمخلوق مهما كان اعتقاده، هذه العناصر هي التي أفسحت المجال لبقاء واستمرار تلك الجماعات غير المسلمة وسط مجتمعات المسلمين عبر تاريخ المسلمين الطويل، في حين أن الكنيسة في أوروبا رفضت الاعتراف بنبوة محمد (صلعم) وكان من نتيجة هذا الموقف أن أوروبا المسيحية لم تسمح منذ البداية باستمرار وجود المسلمين، وما جرى في الأندلس خير شاهد على ذلك فقد كانت الخيارات التي وضعت أمام المسلمين هي

---

(٣٠٥) البلاذري، فتوح، ص ١٤٠.

(٣٠٦) The Pilgrimage of Arculfus in The Holy Land about the year 670. Translated and Annotated by the Rev. James Ros Macpherson, London, 1889. The Pilgtimage of Willibald in the Holy Land about 754.

(٣٠٧) حتي، تاريخ العرب مطول ج ٢ ص ٢٩٩.

(٣٠٨) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٧٩.

(٣٠٩) المقدسي ص ١٧٩، الجاحظ، ثلاث رسائل، طبعة القاهرة ١٣٤٤ هـ ص ١٤.

(٣١٠) المصدر السابق ص ١٦٧.

في حقيقة الأمر، القتل، التنصير أو الطرد، أي أنها كانت درجات في اقتلاع الجذور وإلغاء كيان المسلمين، وهذا ما حدث بالفعل وأدّى في النهاية إلى اختفاء الإسلام تماماً من الأندلس.

الرقيق

كان الرق أمراً مشروعاً عند الأمم القديمة من مصريين وبابليين وفرس ويونان وروم وعرب، وقد أقرّته اليهودية واعترفت به المسيحية[٣١١]. وقد أقرّ الرق جميع الفلاسفة والفقهاء من رومان ويونان، أفلاطون، وأرسطو، وشيشرون، وسينيك، واعتبروه من الأمور الطبيعية أو الضرورية، وكان أول من استعبد الأسرى وسخّر الشعوب المغلوبة هم الرومان، وكثر الرقيق في عهدهم حتى ذكر بعض مؤرخيهم أن الأرقاء في الممالك الرومانية بلغت في العدد ثلاثة أمثال الأحرار[٣١٢]، وكانت وجوه الاسترقاق عند الرومان متعددة[٣١٣].

وعندما جاء الإسلام كان الرق يعتبر نظاماً أساسياً في حياة الشعوب القديمة ودعامة في كيانها الاقتصادي والاجتماعي، فلم يتمكن من إلغاء الرق في العالم حتى لا تصطدم دعوته مع مألوف النفوس ولئلا تضطرب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وإذا كان الإسلام يقدر معنى الحرية ويعتبرها الأصل في الإنسان، إلا أن من خصائص تشريعه التدرج في الأحكام، لذلك أقرّ مؤقتاً واقع الأمر ولم يمنع الرق دفعة واحدة ومضى في التدرج بالمسلمين[٣١٤] فهيأ أسباباً للقضاء على الرق وحرّم سائر مصادره

---

(٣١١) أحمد شفيق، الرق في الاسلام، تعريب أحمد زكي، المطبعة الاميرية ــ الطبعة الأولى ١٣٠٩ هـ. ص ٩ ــ ٢٧. أحمد أمين، فجر الاسلام، الطبعة العاشرة ١٩٦٩ م ص ٨٧ ــ ٨٨.

(٣١٢) أحمد أمين، المصدر السابق ص ٨٧.

(٣١٣) مدونة جستنيان في الفقه الروماني، ترجمة الدكتور عبد العزيز فهمي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٦، ص ١١، دروس في الفقه الروماني، محمد محسن البرازي، الطبعة الثانية، ١٣٥٧ هـ/١٩٣٩ م ج ١ ص ٧٩ ــ ٨١.

(٣١٤) علي أحمد الجرجاوي، حكمة التشريع وفلسفته، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٩٣٨ م، ج ٢ ص ٤٠٠.

ماعدا رق الأسر بسبب الحرب العادلة لرفع العدوان والرق بسبب الوراثة، والشرع لايبيح أن يسترق مسلم أصلاً[٣١٥].

وكان المسلمون إذا غزوا بلداً دعوا أهله إلى إحدى خصال ثلاث، الإسلام أو الجزية أو القتال، فإن رفضوا الإسلام والدخول تحت حكمه ودفع الجزية أعلنت الحرب وقوتلوا، وان طلب المحاربون صلحاً أثناء الحرب أجيبوا إليه متى رأى الامام ذلك[٣١٦]، «وان جنحوا للسلم فاجنح لها» ووجب إذ ذاك تنفيذ الشروط حسب ما تعاقدوا، وان لم يكن صلح وانتصر المسلمون وفتح البلد فهناك أسرى حرب وهناك أهل البلد المفتوح الذين لم يكونوا في الجيش المحارب، أما الأسرى فإنا نجد أنه ورد فيهم في القرآن الكريم «فإذا لقيتم الذين كفروا، فضرب الرقاب، حتى إذا أثخنتوهم فشدوا الوثاق، فإما منا بعد وإما فداء[٣١٧]» وهي تدل على أنه ليس للامام في الأسرى إلا أن يمن عليهم ويطلقهم أو يأخذ مالاً فدية لهم أو يفتدي الرجل المسلم بالرجل المحارب، ولكنا نجد من ناحية أخرى أن الرسول (صلعم) كان يفعل أحد هذين الأمرين أحياناً وكان يقتل الأسير ويسترقه أحياناً أخرى، ففي بدر قتل عُقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث بعد أسرهما، وقتل النبي (صلعم) يوم أحد أبا عزة الشاعر بعد أسره، وقتل بني قريظه بعد نزولهم على حكم سعد بن معاذ، فحكم فيهم بالقتل وسبي الذرية، ولكن قتل الرسول لبعض الأسرى في أول الإسلام يعتبر حوادث فردية لظروف معينة، وليس تشريعاً عاماً دائماً، إلا لتجدد نفس الظروف، فقد قتل بعض الأسرى لغلوهم في معاداة الدعوة الإسلامية وللتمادي في ايذاء الرسول عليه السلام والاسترسال في هجائه[٣١٨].

---

(٣١٥) أحمد بن الحسين البيهقي، سنن البيهقي، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، طبعة أولى، ١٣٥٤ هـ، ج ٩ ص ٧٣.

(٣١٦) أحمد أمين، فجر الاسلام، ص ٨٦.

(٣١٧) سورة محمد، آية ١٤.

(٣١٨) القسطلاني، شهاب الدين أحمد بن محمد، ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري طبعة بولاق، ١٣٢٧ هـ ج ٥ ص ١٥٧ وعن الاوزاعي أن عقبة بن معيط أقبل ورسول الله (صلعم) عند الكعبة فلوى ثوبه في عنقه وخنقه خنقاً شديداً فقام أبو بكر من خلفه فدفعه عن رسول الله (صلعم). (الطبري ج ٢ ص ٣٣٣) أما النضر بن الحارث من بني عبد الدار فكان ممن اجتمعوا في دار الندوة للتشاور فيما

أما الاسترقاق فقد اضطر الرسول إلى تطبيقه هو وصحابته جرياً على شريعة المعاملة بالمثل وبمقتضى قانون الحرب السائد في ذلك الزمان، ولكي يشعر المسلمون غيرهم أنهم صاروا في مركز ذي كيان دولي يستطيعون تنفيذ تعاليم الحرب وتثبيت الهيبة والسلطان، إذ لو استرق الأعداء أسرى المسلمين دون مقابلتهم بالمثل لاستمرأ العدو فعله، ولكان ذلك سبباً في زيادة عدد الرقيق في العالم دون أن يقيد ذلك بقيد، وفي هذا من المفسدة والضرر ما لا يخفى، ولكن المسلمين كانوا إذا قدروا عفوا وصفحوا وأظهروا فضلهم وإحسانهم، فيكون ذلك مدعاة لقبول الإسلام بما يضم بين جناحيه من إنسانية ورحمة، ويدل على هذا أن أغلب ما استرق من القبائل أو أفراد العدو قد عاد حراً، فقد رد رسول الله ستة آلاف من سبي هوازن من النساء والصبيان والرجال إلى هوازن[٣١٩]، ومَنَّ رسول الله (صلعم) على أهل مكة بقوله «اذهبوا فأنتم الطلقاء» واعتق الرسول حين تزوج جويرية بنت الحارث مائة من أهل بيت بني المصطلق إكراماً لصهر رسول الله (صلعم[٣٢٠]).

وفي خلافة عمر بن الخطاب استقامت الجزيرة كلها لنظام الخلافة، فمنع أن يسترق العرب، فقال: انه ليقبح بالعرب أن يملك بعضهم بعضاً، وقد وسع الله وفتح الأعاجم، واستشار في فداء سبايا العرب في الجاهلية والإسلام إلا امرأة ولدت لسيدها، وجعل فداء كل إنسان سبعة أبعرة أو ستة أبعرة إلا حنيفة وكندة فإنه خفف عنهم لقتل رجالهم[٣٢١].

إن الإجراءات التي اتخذها الرسول تجاه الأسرى جعلت أئمة الفقهاء يختلفون في

يصنعون بأمر الرسول حين خافوه، واشترك في معركة بدر، (الطبري ج ٢ ص ٤٥٩) وبالرغم من أن الرسول قد من على عمرو بن عبد الله، أبي عزة الشاعر يوم بدر وكان في الاسارى، لأنه كان فقيرا ذا بنات، فإن صفوان بن أمية استطاع أن يقنعه بأن يعينهم بلسانه مقابل اغنائه، فخرج يسير في تهامه ويدعو بني كنانة لحرب الرسول. (الطبري ج ٢ ص ٥٠٠، ٥٠١).

(٣١٩) ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٤ ص ٩٨، ٩٩؛ الطبري ج ٣ ص٨٦، ٨٧.

(٣٢٠) الطبري، ج ٢ ص ٦١١، ٦١٢.

(٣٢١) المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٤٠.

حكم الأسرى، وإن اتفق معظمهم على أن هذه الأمور متروكة للإمام يتصرف في كل حال حسب ما يحيط به من ظروف مشددة أو مخففة. أما في حالة إسلام الأسير فالأمر يختلف، فإذا أسلم أحد من السبي من النساء والصبيان فلا يجوز رده إلى بلاد الحرب منعاً للفتنة[٣٢٢]، وإن أسلم الأسير يحرم قتله عند جميع العلماء، ولكن اعتناق الإسلام لا ينافي الرق[٣٢٣].

أما أهل البلد المفتوح من غير المحاربين فالإمام مخير بين استرقاقهم وتركهم أحراراً يدفعون الجزية والخراج، ولكن عمر بن الخطاب وإليه المرجع في كثير من هذه المسائل، ترك أهل سواد العراق أحراراً مقابل دفع الجزية والخراج[٣٢٤]، واتبع عمر الأسلوب نفسه في الشام ومصر في الأراضي التي استولى عليها العرب عنوة[٣٢٥]، وإذا استرق الأسرى أو أهل البلد المفتوح فإنهم يعتبرون غنيمة، ينبغي أن تأخذ الدولة خمسهم وتوزع الأربعة أخماس الباقية بالتساوي على من اشترك بالمعركة من المقاتلة من أهل الديوان وغيرهم[٣٢٦]، وبقيت الغنائم تقسم في عهد بني أمية عندما كان المسلمون يغزون الروم والترك والبربر[٣٢٧]، ويبدو أن المسلمين في عمليات فتوحهم الأولى قد أطلقوا عملياً سراح معظم من وقع بأيديهم من السبي ولاسيما سبي القرى سبي الأهواز[٣٢٨]، وسبي مَنَاذِر[٣٢٩]، وبلهيب وألخيس، وسَلْطيس[٣٣٠]، وسبي

---

(٣٢٢) سورة الممتحنة، آية ١٠.

(٣٢٣) ابو عبيد، الأموال ص ١٣٦؛ السرخسي، شرح السير الكبير، الطبعة الأولى ١٣٣٥، ج ٢ ص ٢٦٣.

(٣٢٤) يحيى بن آدم القرشي، الخراج، طبعة ليدن، ١٨٩٥، ص ١٣، البلاذري، فتوح ص ٢٦٨، الطبري ج ٣ ص ٥٨٦.

(٣٢٥) البلاذري. فتوح ص ٢١٥، ٢١٦، الطبري، ج ٣ ص ٣٦٩.

(٣٢٦) يحيى بن آدم، ص ٣، أبو يوسف، الخراج ص ٢١، ابن تيميه، السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية، دار الكتب العربية، بيروت ص ٣٠.

(٣٢٧) ابن تيميه، المصدر السابق ص ٣٠.

(٣٢٨) البلاذري، فتوح ص ٣٧٠.

(٣٢٩) المصدر السابق ص ٣٧١.

(٣٣٠) المصدر السابق ص ٢١٧.

تُستترَ[٣٣١]، إلا سبي المدن[٣٣٢]، ولكنهم عمدوا إلى قتل المقاتلة[٣٣٣]، كما أن الإسلام حرر العبيد المسلمين الذين يفرون من أسيادهم، إذا كان هؤلاء الأسياد من أهل الحرب[٣٣٤].

شرع الإسلام في الواقع منافذ عديدة في سبيل التخلص من رق الأسر وتوابعه، فجعل القرآن الكريم مصير الأسرى إما المن وإما الفداء وجعل العتق كفارة عن كثير من الجرائم والذنوب[٣٣٥]، وخصص الإسلام سهماً لبيت المال من الصدقات التي تجبى لتنفق في سبيل تحرير الرقاب، وفضلاً عن ذلك فإن الإسلام جعل من أسس النجاة في الآخرة فك رقبة[٣٣٦]، وقرر الإسلام مبدأ العدل والمساواة في الحقوق كافة بين طبقات الناس قال تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم[٣٣٧]» وأحسن لذلك معاملة العبيد في المطعم والمسكن والملبس والتخاطب، روى ابن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله (صلعم) لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي فكلكم عبيد الله وكلكم إماء الله، ولكن لتقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي[٣٣٨].

كانت العلاقة بين السيد وعبده علاقة شخصية ولذلك فليس للعشيرة أو الدولة حق التدخل فيها، وكان من نتيجة ذلك أن العشيرة لم تكن تدفع دية الجرائم التي يرتكبها عبيدها[٣٣٩]. كما أن الدولة كانت غير مسؤولة عن القبض على الأباق الهاربين

---

(٣٣١) المصدر السابق ص ٣٧٤.

(٣٣٢) المصدر السابق ص ١٤٧.

(٣٣٣) المصدر السابق ص ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٤.

(٣٣٤) ابن حنبل، المسند، ج ٤ فقرة ٢١٧٦، ٢٢٢٩.

(٣٣٥) محمد سلام مدكور، تاريخ الفقه الاسلامي، القاهرة ١٩٥٩، ص ٤٣.

(٣٣٦) الرازي، تفسير الرازي، المطبعة الخيرية، الطبعة الأولى ١٣٠٧، ج ٨ ص ٤٣٣.

(٣٣٧) سورة الحجرات، آية ١٣.

(٣٣٨) الألف المختارة من صحيح البخاري، اختيار وشرح عبد السلام محمد هارون، بيروت ١٩٧٩ ص ٤٠٣، فقره ٣٣٣، الطحاوي، مشكل الآثار، مطبعة دار المعارف النظامية في الهند، حيدر أباد، الطبعة الأولى، ١٣٣٣ هـ ج ١ ص ٤٩٣.

(٣٣٩) أبو يوسف، الآثار، القاهرة ١٣٥٥ هـ. ص ٢٢١، مالك بن انس، المدونه، القاهرة، ١٣٢٤ هـ ج ٤ ص ٤٤٤.

امن أسيادهم[٣٤٠] . وبالرغم من أن العبد كان يعتبر ملكاً لسيده الذي يتمتع بالحق المطلق في بيعه واستخدامه فيما يشاء من الأعمال، فإنه لم يكن له الحق في قتل عبده[٣٤١]، وقد روي أن رجلاً قتل عبده متعمداً فجلده الرسول مائة جلدة ونفاه سنة ومحا اسمه من المسلمين[٣٤٢]، ولكننا في الواقع لا نعلم بماذا كانت الدولة تعاقب من يقتل عبده .

كان العبيد في الإسلام يتمتعون ببعض الحقوق التي لا يمكن أن ينكرها عليهم القانون والمجتمع، فبمقدورهم بعد استئذان سيدهم أن يتزوجوا[٣٤٣] ويتبع أولادهم الأم في حالة رقها وولائها[٣٤٤]، وبمقدورهم أن يمتلكوا الأموال ويتمتعوا بها في حياتهم، ولكن أموال العبيد ترجع إلى سيدهم عند بيعهم أو موتهم[٣٤٥]، ثم ان لهم أن يعتنقوا ما شاؤوا من أديان ويمارسوا طقوسها، فإذا اعتنقوا الإسلام كانت عليهم معظم الفرائض الدينية المفروضة على الأحرار من المسلمين، غير أن صلاة الجمعة مثلاً ليست واجبة عليهم[٣٤٦]، وكذلك الحج[٣٤٧]، كما أن حقوقهم في الأمور المدنية أقل من الأحرار فلم يكن لهم أن يتزوجوا أكثر من زوجتين، والطلاق عندهم طلقتان[٣٤٨] وعدة الجارية شهران[٣٤٩]، ولم يكن للعبد أن يحارب من غير إذن سيده[٣٥٠]، كما أنه لا يدون اسمه في

---

(٣٤٠) ابو حنيفه، جامع المساند، حيدر أباد ١٣٣٢ هـ، ج ٢ ص ٧٣ــ٧٥، أبو يوسف، الآثار، ص ١٦٥، ١٦٦، مالك، المدونة، ج ٤، ص ٣٦٦ .

(٣٤١) فنسنك، مفتاح كنوز السنة ص ٤٠٩ .

(٣٤٢) ابن ماجه، السنن، القاهرة ١٣١٣، كتاب الديات، الباب ٢٣ .

(٣٤٣) ابو حنيفه، مساند ج ٢ ص ٨٣، ٨٤، ابو يوسف، الآثار، ص ١٣٠، ١٣١ .

(٣٤٤) الشافعي، الأم، القاهرة ١٣٢١، ١٣٢٦ هـ . ج ٦ ص ٣٨٥، أبو حنيفه، مساند ج ٢ ص ٨٣ .

(٣٤٥) الشافعي، الأم، ج ٣ ص ٣٦، ج ٤ ص ٣، أبو حنيفة، مساند ج ٢ ص ٢٧، ١٦٥ .

(٣٤٦) أبو يوسف، الآثار ص ٧٣، الشافعي، الأم ج ١ ص ١٦٧، ١٦٨ .

(٣٤٧) المصدر السابق ص ٧٣، الشافعي، المصدر السابق ج ١ ص ١٦٧، ١٦٨ .

(٣٤٨) أبو حنيفة، مساند ج ٢ ص ١٣٣ .

(٣٤٩) أبو حنيفة، مساند ج ٢ ص ١٣٣ .

(٣٥٠) ابن سعد، الطبقات ج ٦ ص ١٨٣ .

الديوان ولا يعطى عطاء[٣٥١]، ولم يكن يسهم له في الغنيمة لأنه تابع لسيده[٣٥٢] إلا أنه كان يرضخ له أي يعطى أجراً[٣٥٣]، غير أنه يجوز للعبد المسلم إعطاء الأمان اعتماداً على قول عمر: «إن العبد المسلم من المسلمين وذمته ذمتهم، وأمانه أمانهم[٣٥٤]» أي أن الإيمان هو أساس اعتبار الشخص أهلاً لإعطاء الأمان، وليس هو الحرية والعبودية، وقد أنفَذَ الخليفة عمر أمان العبد بالفعل عندما أمن عبد أهل حصن، فأرسل القائد يستشيره، فكتب عمر أن أجيزوا أمان العبد[٣٥٥].

وكان لبعض العبيد مزايا شخصية مكنتهم من الحصول على ثقة أسيادهم، فأصبحوا تلامذة أو رواة لأهل العلم منهم[٣٥٦]، أو وكلاء عن أسيادهم في الأعمال التجارية هذا إلى أن عدداً كبيراً منهم أصبحوا مأذونين أي منحوا حق ممارسة المهن والأعمال التي يريدونها وأصبحت لهم حرية في ميادين الأعمال في الصناعة والتجارة[٣٥٧]، على أنه مهما كانت نظرة المجتمع للعبد طيبة، ومعاملة السيد حسنة، فانه كان محروماً من حريته مقيداً في تصرفاته، مرتبطاً بميول سيده وأمزجته وأهوائه، محروماً من التمتع بكل ثمار دخله، فمكانته إذا لا بد أن تكون أقل من مكانة الحر المتمتع بكامل حريته.

كانت الدولة تملك رقيقاً يسمى رقيق الخمس، أو رقيق الإمارة، وكان معظم رقيق بني أمية منهم[٣٥٨]. وقد ازداد عدد رقيق الخمس نتيجة للفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً، فقد أخذ موسى بن نصير ٣٠٠ ألف أسير من افريقية وبلغ الخمس يومئذ ٦٠

---

(٣٥١) البلاذري، انساب الأشراف، ج ٥ ص ٢٩٩، ٣٠٠، ابن الأثير، ج ٤ ص ٣٠٤.

(٣٥٢) ابن حنبل المسند، ج ٤ فقرة ٢٩٣١، ٢٩٣٢، ٢٩٣٢، ابن العربي، أحكام القرآن، القاهرة، ١٣٧٦ هـ سنة ١٩٥٧ م ج ٢ ص ٨٩٢.

(٣٥٣) أبو عبيد، الأموال، ص ٣٣٣، الطبري، اختلاف الفقهاء، القاهرة ١٩٣٦ ص ٢٠، ١١٤.

(٣٥٤) البيهقي، السنن، ج ٩، ص ٩٤.

(٣٥٥) البلاذري، فتوح، ص ٣٨٣.

(٣٥٦) ابن سعد، الطبقات ج ٧ قسم ٢ ص ١٧٣.

(٣٥٧) E.I New Edition, Art. Abd

(٣٥٨) ابن سعد، المصدر السابق ج ٧ قسم ٢ ص ١٧٣.

ألفاً[٣٥٩] ويقال إن قتيبة بن مسلم الباهلي أصاب من خوارزم مائة ألف رأس[٣٦٠]، وعندما صالح قتيبة أهل سمرقند صالحهم على ألفي ألف ومائتي ألف في كل عام على أن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس ليس فيهم صبي ولا شيخ ولا عيب، أما الباهليون فيقولون انه صالحهم على ١٠٠ ألف رأس[٣٦١]، وهذه الأرقام وإن كان فيها بعض المبالغة إلاّ أنها تشير إلى الأعداد الكبيرة من الرقيق التي تدفقت على الشام إضافة إلى ما كان فيها من العبيد، فقد استطاع يزيد بن أبي النمس الغسّاني الذي لم يشهد الجابية واختبأ بدمشق أن يثور بأهل دمشق في عبيدها، وأن يغلب عليها ويخرج عامل الضحاك[٣٦٢]، وكان لعمرو بن سعيد وهو من امراء البيت الأموي ألف عبد[٣٦٣]، ونلاحظ ابتداء من خلافة سليمان بن عبد الملك تعيين أشخاص يوكل إليهم أمر الرقيق، فقد عين سليمان بن عبد الملك، عبد الله بن عمرو بن الحارث مولى بني عامر بن لؤي على بيوت الأموال والخزائن والرقيق والنفقات[٣٦٤]، وعندما سيطر العباسيون على الشام قبضوا رقيق بني أمية من الأخماس[٣٦٥].

كان رقيق الخمس يستخدم في شؤون شتى، فعندما أرسل معاوية سبي قيساريه البالغ أربعة آلاف رأس إلى عمر بن الخطاب، قسّمهم على يتامى الأنصار وجعل بعضهم في الكتاب وأعمال المسلمين[٣٦٦]، واستخدم خالد بن يزيد عندما كان والياً على حمص ٤٠٠ عبد في بناء مسجدها[٣٦٧]، كما أن عبد الملك أقام من خمس الأسرى خدما لمسجد قبة الصخرة، وكانوا مماليك له وكانوا يسمون الأخماس ولا يخدمه

---

(٣٥٩) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١ ص ٣٢.
(٣٦٠) الطبري ج ٦ ص ٤٧١.
(٣٦١) المصدر السابق ج ٦ ص ٢٧٥.
(٣٦٢) الطبري ج ٥ ص ٥٣٧.
(٣٦٣) المصدر السابق ج ٦ ص ١٤٤، ابن الأثير ج ٤ ص ٣٠.
(٣٦٤) خليفة بن خياط ج ١ ص ٤٣٢.
(٣٦٥) ابن سعد الطبقات ج ٧ قسم ٢ ص ١٧٣.
(٣٦٦) البلاذري، فتوح، ص ١٤٧.
(٣٦٧) البلاذري، انساب الأشراف ج ٤ قسم ٢ ص ٦٩.

غيرهم[٣٦٨]، وكان عمر بن عبد العزيز إذا كثر عنده أرقاء الخمس فرّق بين كل مقعدين وبين كل زمنين غلاماً يخدمهما ولكل أعمى غلاماً يقوده[٣٦٩]، ولا شك أن الوليد بن عبد الملك الذي كان أول من أجرى على العميان والمرضى والمجذّمين الأرزاق وأعطى كل مقعد خادماً وكل ضرير قائداً، قد استخدم في ذلك رقيق الخمس[٣٧٠]، وبالرغم من أن كلود كاهن Claude Cahen يذكر في بحثه عن المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية في الإسلام أن العبيد كانوا يستخدمون لإداء الأعمال البيتية والحرف اليدوية وأنهم لم يستخدموا في العمل الزراعي في العصر الأموي[٣٧١] فهناك روايات تشير إلى أن العمل في الأرض كان يعتبر من الأعمال الأساسية للعبيد، وكانت المزرعة إذا وهبت وهبت بآلاتها ورقيقها[٣٧٢].

ليست بين أيدينا روايات تلقى ضوءاً على مستوى حياة الرقيق والمعاملة التي كانوا يلقونها من أسيادهم في الشام، إلا أن اشتراك عدد كبير من أباق العبيد مع الجَراجِمة في ثورتهم تجعلنا نتساءل عن سبب هربهم والتحاقهم بالثورة، أهو ناجم عن سوء في المعاملة، أم عن رغبة في الحصول على الحرية التي تعتبر أثمن ما يتوق إليه الإنسان؟ مهما يكن دافع هؤلاء العبيد، فان سحيم بن المهاجر الذي كان قد أرسله عبد الملك للقضاء على القائد الرومي الذي أثار الجَراجِمة، استطاع أن يستميل العبيد إليه عندما أمر فنودى بأن من يأتيه من العبيد فهو حر ويثبت في الديوان[٣٧٣] فانفض إليه خلق كثير وقاتلوا معه فوفى لهم وجعل لهم ربعاً على حده فهم يسمون الفتيان[٣٧٤]

---

(٣٦٨) المقدسي، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٧١.

(٣٦٩) ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٤٨.

(٣٧٠) العيون والحدائق ص ١١، ١٢، القلقشندي، صبح الأعشى ج ١، ص ٤٣٢، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٤٤.

(٣٧١) Claude Cahen, Economy, Society, Institution, The Cambridge History of Islam, Vol. II The Cambridge University Press 1970, P. 519.

(٣٧٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ١١٩، تهذيب ج ٥ ص ٣٤٢، ابن طولون، الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥٦ م ص ٦، ٧.

(٣٧٣) البلاذري، أنساب ج ٥ ص ٢٩٩، ٣٠٠، ابن الأثير ج ٤ ص ٣٠٤.

(٣٧٤) المصدر السابق ص ٣٠٠.

وكان أمراء بني أمية وولاتهم يعتقون الكثير من رقيقهم، فقد اعتق خالد بن يزيد ٤٠٠ عبد بعد انتهائهم من بناء المسجد بحمص[٣٧٥]، وأعتق سليمان حسب رواية النويري في يوم واحد سبعين ألف مملوك ومملوكة وكساهم[٣٧٦]، هذا وإن كثرة الموالي لدى الخلفاء ولدى أمراء بني أمية كلها دلائل تشير إلى ذلك.

(٣٧٥) المصدر السابق ج ٤ قسم ٢ ص ٦٩.

(٣٧٦) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢١، ٣٥٣.

obeikandl.com